الطبعة 2

حسام مصطفى إبراهيم

لديَّ الكثير جدًّا لأقوله لكِ

أيام الهوى العارم والخِذلان المُميت

تشكيل للنشر والتوزيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلب مفتوح

"إن لم أكن قد أحببتك، فلعلّي لم أكن لأرغب في الموتِ أكثر من الحياة الآن، لكنّي كذلك لم أكن لأملك الجرأة يومًا كي أقول بيقين وألم وبهجة وضعف وقوة وابتسام ودموع ولذة وضياع وتماسك وانهيار وحزن وفَقْد وشوق ووله وفجيعة وذبح: لقد عشتُ"

لا شيء هناك

نزع اللّه من قلبي "فيشة" الدهشة، وأسلمني لنابِ شيطانٍ رجيم، لعنني بالاعتياد، والتوقّع، وقلّة الاكتراث للعالم، فأصبح وجودي مثل عدمه، وباتت لحظاتي حرثًا في بحر، ومحاولة لحفر ثقب، في قلب ماسة، بعود كبريت لم يُولد بعد!

أنا لا أحبُّ الحياةَ، لا أعلمُ متى تيقّنتُ من هذا تمامًا، وهل كان ذلك بسببِ خيباتي التي تتكسّر على خيباتي، أم لأنني جئتُ دون أن تكتملَ أدواتي لمواجهةِ التفاصيلِ، وتفاصيلِ التفاصيلِ، أم لأنني شخصٌ منتهي الصلاحيةِ تمامًا، نَسَونِي على رفٍّ وسْط آخرين صالحين، ثم جئنا معًا -دون أن ينتبهوا لي- إلى هذه البقعةِ من العالم!

أتأمّلُ الخطَ الزمنيَ، الانتصاراتِ والهزائمِ، الوصولَ والسقوطَ في منتصفِ المسافةِ بين الواقعِ والحُلم، البداياتِ والنهاياتِ، المسرّاتِ والفواجعَ، الوصلَ والفصلَ، الانقطاعَ والتداني، فصولِ الوجع وفواتحَ الخذلاناتِ، فألمحُ الخطَ الواهيَ الذي يفصلُ بينها جميعًا، وأراني أتكوّرُ فوقَه، فيطالني مِن الشِمال ما يطالُني، ومن اليمين ما يطالني، فلا أبرحُ حتى أثملَ بالوجع!

لا شيءَ، في الواقعِ، لا شيءَ على الإطلاق، يمكنُ أن يتسلّلَ للقوقعةِ، ويضيءَ النورَ، ويكشفَ الحدودَ الفاصلةَ، ويرفعَ الحُجُبَ، ويصقلَ البصيرةَ، وما خُلق الـ "قاب قوسين أو أدنى"، إلا لنقاربَ، ثم نفقدُ، نوشكُ ثم نُطرَد، نهمُّ ثم نُصَدُ، ونخسَر جماعِ ما نَملِك، على عتباتِ الفوزِ تمامًا، وقبل لحظةٍ واحدةٍ من الولوجِ للحياة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي كنّا نتمنّى، لا تأتي الخساراتُ إلا قبلَ الفوزِ بثانية، لا قبلها كثيرًا، فنُفجع قليلا ونتعافَى، ولا بعدها وئيدًا، فنقتنصَ لحظةَ نعمةٍ، ونتصبّر!

في كلِّ المرّات التي أقسمتُ فيها ألا أتورّط، ألا أجتاز، ألا أعبر، ألا أتناول غُرفة بيدي، أن أظلّ على الخط الفاصل بين الممكن والمستحيل، فردًا نافرًا مستوحشًا.. سقطّتُ، وعندما ارتديتُ رأسِ كلبٍ، لأتشممَ الهزيمةَ قبلها بأميالٍ، أُصبتُ بالزكام، فقادني أنفي لما هو أمرُّ من الهزيمة، وعندما حوّلتُ نفسي كنغرًا، لأقفزَ فوق المِحنة، انفتحتْ مصيدةٌ تحت قدمي، فقطعتهما، وعندما تعملقتُ، وأصبحتُ تنينًا، وقررتُ حرقَ العالم جرّاء خطيئته في حقي، ونفثتُ ناري بغلّ، وجدتُ قلبيَ في مواجهتي مرفوعًا على سيخ حديدي، فاحترقَ، وبقي السيخُ، وعنما تضاءلتُ وصرتُ نملةً، حطّمني سليمان وجنوده، ولم يستمعوا قولي!

لا أُريدُ الكثيرَ، ولا القليل، لا القريبَ، ولا البعيد، لا الذي يُريدني، ولا الذي أريدُه، في الواقع.. لم أعد أريدُ أن أريدَ، أو أريدُ ألا أريد!

في لحظةِ الألم الكبرى، لحظة ِالملامسة، لحظةِ انسلاخِ الروحِ، وتقشّر الفجيعة، لحظةِ الوقوفِ عاريًا مجروحًا بكاملك في بحرٍ من الكحول، لحظةِ التضاؤل الكبرى من إنسان إلى نقمة على العالمين.. تكتشفُ أنّه لا حكاية هناك، لا تفاصيل، لا خطوط عريضة، لا حبكة، لا أبطال، لا شخصياتٍ، لا سيناريو، لا بداية، لا نهاية، لا لذة، لا ألم، لا وفاء، لا خيانة، لا رجال، لا نساء، لا وعود، لا عشم، لا علاماتٍ، لا نُذرَ، لا حكمة، لا مؤازرة، لا فتوح، لا أبواب، لا أمام، لا خلف، لا فوق، لا تحت، لا شيء على الإطلاق!

المحبوسون في حكاياتٍ صاغوها بالدم وبالدموع، الواجفون في عمقِ تجربةٍ مُحيية مميتة، المعتقدون في حياة أخرى أجمل مما يملكون، الساعون بعزم للخروج من حال إلى حال، الخائفون من مُضي الوقت وفوات الفترة دون الوصول، المُسلِمون زمامَهم للحلم إذا تنفّس، والوعدِ إذا عَسعَس، المُصطفّون خلفَ إمامِ الشغفِ والدهشةِ، على سَجّادةِ الأمل، المُكرّسون دقائقهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وثوانيهم للقبضِ على طرفِ خيط، وبدايةِ طريق..

أنا قادمٌ من حيث تطمحونُ جميعا أن تكونوا...

ولا شيءَ هناك.

لا شيء.

لا.

إن لم أكن قد أحببتك

إن لم أكن قد أحببتك.. فلعلّي لم أكن لأرغب في الموتِ أكثر من الحياة الآن، لكنّي كذلك لم أكن لأدرك قوّة قلبي وضعفه، عنفوانه ورهافته..

كيف أفرح حدّ الذبح، وأبكي حد الفجيعة..

كيف أقرأ العلامات والنُذر والإشارات، وأُمزّق الحُجب عن الرسائل الكونية، وأجري في مضمار الكشف والحلول والمواءمة..

كيف أثمّن بعض اللحظات فأرفعها إلى مصاف الآلهة، وألتصق بها حد التماهي، فأستحلب نعيمها وعذابها حتى الثمالة، وحتى غياب العقل واختفاء الوجود..

كيف أدخل الألم فردًا صمدًا، فأنفجر به وفيه وله، حتى تختلف عليّ أعضائي، وتنعجن روحي، وتتفتت إلى أصغر وحدة لإدراك الكَبَد، فتبلغ الحلقوم، ولا تردّها إلا ابتسامتك وسلامُ عفو من يدك..

كيف أجري في مضمار الحلم حتى ألهث، وتبتل عروقي باللهفة والوجع، فأتمنّى على اللّه المستحيل، وأدخل رحابه راكبًا فَرس العشم، قافزًا من فوق حواجز الممكن والمفروض والمتاح..

كيف أنسى العالَم والتاريخ والجغرافيا والحضارة فيكِ، وبك، فلا يعود لي منها سوى اختراعك، وتسويتك على هيئة ابتسامة..

كيف يتجلّى الخالق في أبسط الأشياء، كما في أعظم الأشياء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مـن الأميبـا وحيـدة الخليـة، إلـى المجـرّات والأفـران الشـمسية والسدم والكواكب والنجوم والثقوب السوداء..

كـيف أرى دون عـيون، وأسـمع دون أذان، وأسـير دون أقـدام، وأعاين ما لم يقع، وأطالع ما حُجب عني، مكتملا معك، بصيرًا بك، ومستغنيًا عن العالمين..

كـيف يـأبى قلبي النوم وجفني الغمض طـول الليـل فـي رحابك، حاضرة أو غائبة، مقيمة أو راحلة، فأشرب من عينيك شربةً، لا أظمأ بعدها أبدًا، فإذا أشرق نورُ اللّه، أمدّ الخطو متعجلا قطفَ ابتسـامة صـباحية -ليس كمثلها شـيء!- مـن حـدائق وجـهك.. فأمتلئ.. وأكون.

إن لم أكن قد أحببتك فلعلّي لم أكن لأرغب في الموتِ أكثر من الحياة الآن، لكنّي كذلك لم أكن لأدرك أن الحبّ وصلٌ وإيصالٌ وحلولٌ وتعبّد وتشبيكٌ وحضنٌ ومناجاةٌ وتعلّقٌ وتبتّل وذوبانٌ وتوسّد لذراع الحبيب ودخولٌ في كامل تفاصيله، عزفٌ للسلم الموسيقي على بيانو الجسد، وتلاوةُ قصيدة الحياة من كتاب الـروح، صـلاةٌ صـوفيةٌ فـي ملـهى ليلي، مسكة يـد ومسكة روح ونبضـة قلـب تُجِيـب نبضـة قلـب، إيقاع يـردّ علـى إيقاع، ونَفَس يـواكب نَفَسـا، وومضـة تجاوب ومضة، نقطة عـرق تتعشق فـي نقطـة عـرق لحظـة الملامسـة، بركـان مـن اللـذة والتنهد والوجع والارتقاء والألم والنشوة والندم والجشع وخوف الفراق، اندلاع، فـوران، لا إرادة، لا منطـق، لا معقـول، لا حسـابات، لا موازنـات، إحيـاء، إرواء، نـور، بـرّ، رحمة، طهر، فُجر، رأفة، انصياع، كدح، تقوى، مكابدة، اتحاد، شغف، تنزّه، صبابة، لوعة، خشية، طيبة، تضحية، مصافاة، مودّة، وَجْد، وداد، وَلَع، إيثار، مَنْح، جَوى، هُيام. إيلاف، صفا... حب.

إن لم أكن قد أحببتك، فلعلّي لم أكن لأرغب في الموتِ أكثر من الحيـاة الآن، لكـنّي كـذلك لـم أكن لأملك الجرأة يومًا كي أقول بيقين وألم وبهجة وضعف وقوة وابتسامة ودمعة ولذة وضياع وتماسك وانهيار وحزن وفَقْد وشوق ووله وفجيعة وذبح: لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشتُ.

والآن..

لعلّه لم يبق لي سوى رحلة نهائية، إلى آخر النفق.. حيث يخفت الضوءُ، ويندر الهواء، وتضيق المساحات، وتنحني المسارات، وتتماهى العبارات، وتتقشّر الدنيا، وتختفي الأصوات..

إلا صوت اللّه.

وفقط...

أتمنّى أن يكون من اخترتِه بعدي، مُلمًا بالنوتة الموسيقية، كي يعرف كيف يستخرج الأنغام من أوتار جسدك.

وفاهمًا في الرسم، كي يلوّن وجهك بالضحكة وقت المحنة.

وشاعرًا حقيقيًا، كي يُعيّن الكلمات متحدثًا رسميًا بفتنتك، وإذاعةَ أغانٍ مضبوطةٍ على موجة قلبك.

وخبيرًا بالبستَنة، كي يسقي وردةَ روحك، كلّما عطشت، فتينع، وتنبت فتنة للناظرين.

وقارئًا للتاريخ، كي يعرف أنك، وكليوباترا وزنوبيا وبلقيس وشجرة الدر والهرم الأكبر وسور الصين العظيم والإلياذة والأوديسة وألف ليلة وليلة، لا تتكرّرون.

وذوّاقة، كي لا يعايرك أبدًا، إذا بدأ اللونُ الأبيضُ يُواقع سنابلَ شعرك، والتجاعيدُ الخفيفة ترتاح تحت عيونك، ويفهم أنك والخمر والذكر والتانجو.. بالزمن تصيرون لذّة للوالهين!

التنقيب في دفتر الخيبات

عندما تجلس لتراجع دفتر الخيبات، وتقلّب أوراق الهزيمة، وتحاول تحديد مساحة الجرح التي تزيد باطّراد، ووضع رُقعة جديدة على ثقوب الروح التي تتكاثر ذاتيًا، وتتساءل: هل أحبوّنا من قلوبهم حقًّا؟ تكتشف كمَّ المغالطات المُرعب الذي بلعتَه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سـعيدًا، والمـواقفَ والعبـاراتِ والأحـوال التـي كـان ينبغـي لـك الوقوف عندها، ولم تفعل، والأوهام التي كنتَ تنسجها وتعيش في ظلّها، دون حساب أو مراجعة، والنُذر والعلامات والإشارات التي لم يكفّ الكونُ كلّه يومًا عن إرسالها لك، ولم تكفَّ يومًا عن تجاهلها!

لقد كنتَ أنتَ أكبر عدوٍّ لنفسك وليس الآخرين، عندما لم تقدّر ذاتك حقّ قدرها، ورضيت بالمتاح خوفًا من ألا يتكرّر، وعندما سمحتَ لمن لا يستحق أن يدخلَ حرمك، ويسكن قلبك، ويعيث فسادًا في أعزّ ما تملك، عندما عشتَ كفيفًا وأنت بصير، وأصمّ وأنت سميع، وحزينًا نافرًا موجوعًا مستلبًا على هامش الحياة، وأنت خليفةُ اللّٰه في أرضِه، فيما أكملوا هم طُرَقهم وأقدارهم، وَعَبروك بلا لحظة تردّد واحدة، كأن لم تُخلَق، أو تلتقي عيونكم ذات حبٍّ، واليوم أنتَ -اعترف- لا تدفع ثمن طيبة قلبك ولا حبّك ولا تضحيتك ولا إيثارك، إنما ثمن غبائك.

إننـا بـارعون فـي خداع أنفسنا، وصنع عـوالم كاملة من الأوهام والصور غير الحقيقية، أساتذة في التقمّص والتلهّي واصطناع الحـالات والمشـاعر، والـدخول مـن الأبـواب الضـيقة والشـوارع الخلفية، فنّانون في عدم الاعتراف بالواقع، والإصرار على حبس أنفسنا في فكرة، أو لحظة، أو حالة، لا عن كراهية لذواتنا، أو رغبة في التنكيل بها، لكن طمعًا في تحقق ما نحتاج إليه بشدة، وخوفًا من تغيير أوضاع اعتدنا عليها، وفزعًا من الخروج من المألوف لعشـوائية الاحتمـالات، ورعـبًا مـن أكبـر شبح يخيفنا جميعًا بلا استثناء، ونهرب من الاعتراف به طول الوقت: الوحدة!

إننا وحيدون حدّ الذبح، حدّ الفجيعة، حتى ونحن وسط عشرات البشـر، ونحـن فـي قلب البهجة، ونحـن فـي أشد لحظاتنا تحققا وانتصارًا! لقد اخترعنا المئات من وسائل التواصل الاجتماعي، وصنعنا طبقاتٍ من الحياة الافتراضية، وأصبح بإمكاننا أن نوجد في أكثر من مكان، في الوقت نفسه، ونسمع أدق، ونرى أوضح، ونتحـرك أسـرع، اصـطنعنا الأصـدقاء والأقربـاء والتلاميـذ والمُريدين، لكننا ازددنا وحدة ووحشة وتقوقعًا، وتراجعنا أكثر

4%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داخل أنفسنا، حتى اصطدمنا بالجدار!

وعندما نعثر على من يُبدّد هذه الوحدة، ويُثنينا عن التحديق في عينيها فترة، وينزع رأسنا من على وسادتها، يكون ذلك موقوتًا -للأسف- بقدرتنا على إثارة اهتمامه، وتلبية احتياجاته، ومنحه ما جاء إلى أرضنا من أجله فقط، وبمجرّد أن ينتهي، أو يخفت، أو يتبدّل.. ينهار كل شيء.

ويأتي المشهد الأخير عادة بصور مختلفة، بعد تفجّر لحظة التنوير في وجوهنا، وإنزال الستار، واختفاء الممثلين من خشبة حياتنا: بعضنا يظلّ يتحدث طول الوقت، دون أي سبب ولا داع ولا مبرر، كي لا يتوافر لديه وقت ليسألَ نفسَه هل هو وحيد أم "وَنْسَان"!

بعضنا يكتب بلا توقف، ويُبدي رأيه بلا انقطاع، حتى فيما لا يفهمه، لأنه يخشى لحظة يكفّ فيها عن الفعل، فينكشَف!

بعضنا يتقوقع داخل ذاته كل يوم أكثر، ويغوص في اللحم والعظم، حتى تنغلق روحه على روحه، ويغيب صوته في صوته، وتيبس أطرافه، ويتحول ببطء إلى دولاب، أو شمّاعة ملابس، أو ولاعة لا نار فيها!

وبعضنا ينغرز في الشغل حتى عنقه، ويكلّف نفسه ما لا طاقة لها به، حتى لا ينظر لنفسه في المرآة، ويسألها بحرقة السؤال الفاجع، الذي غالبًا ما يكون الأخير قبل الارتطام بالأرض: ما الذي أخطأت فيه؟

والحقيقة أن من أحبّونا، ثم سلّوا ثيابهم من ثيابنا ورحلوا، أحبّونا على حَرْف، بشروط، وفق ضوابط معينة، ولأَجَلٍ مُسمّى، حتى إن لم نصارح أنفسنا بذلك، ولم يصارحونا هم أيضًا، أو فعلنا بصوت خفيض، كي لا نسمع أنفسنا، فلم ندرك قواعد اللعبة منذ البداية، ولم تسعفنا خبرتنا السابقة بالخذلان، لفهم ما يجري حولنا، فارتمينا في التجربة، دون دفاعات ولا خطط بديلة ولا محطات للراحة والتزوّد بالوقود، انفجرنا فيها وبها ولها، وانعجنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كروموسوماتنا بكروموسوماتها، فلم يعد الفصلُ بيننا ممكنًا، إلا بجراحة قلب مفتوح، خطيرة الإجراءات وخطيرة النتائج، وعندما وصلنا منتصف الطريق -حيث تتخلّق الحقائق على وهج الواقع لا الرغبات والاحتياجات- وبدأتْ عيوننا تلمع فرحة وعدم تصديق، أننا قد اجتزنا كل هذه المسافة، واكتشفنا أخيرًا كنز الرحلة، كانوا قد فرغوا منّا تمامًا، وقضوا وَطَرَهم، ولم يبق إلا إعلان وصولهم خط النهاية.. نهايتنا!

إنها دائرة مُفزعة، ومفرَغة، ولا سبيل إلى الخروج منها، إلا إذا أقنعنا أنفسنا أننا غالون فعلا، ونستحق مَن هو أفضل، أننا مركز العالم حقًّا، وأن الآخرين -أيًّا كانوا- مُريدون فحسب، زوّار، كائنات فضائية تستكشف كوكبًا جديدا للزيارة لا المكوث، يطوفون حولنا بقَدَرٍ، ويقصدوننا لوقتٍ معلوم، وتتماس دوائرهم مع دوائرنا لغاية مُحدّدة، حتى إذا حان حينُهم، نَأوا وفارقوا وبانوا وذابوا في الفيض الأعظم، فلا يبقى لنا في الحساب الختامي، إلا أنفسنا، وفرادتنا بالوحدة، وأُنسنا بالوحشة، وما اقتنصناه عفوًا من نِتف السعادة ولذع التجربة ووهج المحاولة، بلا فرح غامر ولا حزن قاصم للظهر، بلا توقّع هادر ولا انتظار مُمضّ، بلا عشم جارح ولا أمل متوهج.

وسفينتك لبلوغ ذلك: أن تسامح مَن طعنك، وأسالَ دمك، وفتّت عظامك، وأزهق روحك، لأنك إن فعلتَ، قطعتَ عنه آخر أنبوب أوكسجين يتشبث بها، وآخر شربة ماء يتزوّد بها، وآخر خيط عنكبوت يتمسّك به للبقاء -كالطفيل- في عالمك، ولم يعد له مِن سلطانٍ عليك، حتى يغادرَ جسدك رويدًا، كَسُمٍّ انتهتْ مدّةُ إقامته في دمك، ورصاصة أخرجها جراح ماهر من حبّة قلبك، فيما لو بقيتَ تكرهه، ستظل تحدّق في عينيه ليل نهار، وتتذكر خذلانه كل ثانية، فيغوص سكينه في جرحك أكثر، ويُمزّق مزيدا من إرادتك، وينسف جميع محاولاتك للقيامة من الموت، فلا تنسى ما فعل، ولا تتجاوزه ما حييت، قبل أن تصبح أسيره للأبد!

فسامِح..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أجلك، لا من أجله.

الذين اقتربوا أكثر من اللازم!

ستعرفهم مِن أوّل نظرة إلى عيونهم المتّسعة، الثابتة على مشهد غائم خارج هذا العالم، لا يراه سواهم.

مِن أياديهم العصبية غير المُسيطَر عليها، وغير القادرة على القبض على الكائنات، واحتوائها.

مِن حركتهم المتعجلة دائمًا، الساعية للخروج من أي مساحة ثابتة، أو منطقة احتمالات، فقد زهدوا -حتى الذبح! - في التوقف عند حدود الأشياء.

مِن ملامحهم التي تبدو -للوهلة الأولى- عابرة ومألوفة، ومثل غيرها، لكنها في الواقع ليست كذلك أبدًا، إذ قد تغيّر فيها شيء جوهري.. للأبد!

من ضحكاتهم المرسومة على الشفاه دون القلب، المحمولة على جبال من الهمّ لا يظهر لك منها إلا قمّتها، والخارجة ردّ فعل لا مبادِرة، والمهددة بالاختفاء والتماهي والغروب، ربّما قبل حتى أن تعرف أن ثمة ضحكة كانت تنوي أن تتشكل ها هنا يومًا ما!

هؤلاء الذين اقتربوا أكثر من اللازم، همّوا وقارفوا وتورّطوا، شربوا آخر قطرة في كأس التجربة، ولمسوا بأطراف أصابعهم سدرة المنتهى، فذهلوا عن أنفسهم والآخرين، وجُنّوا بالكشف والحلول، فمضوا نحو استجلاء المزيد والنفاذ إلى الأصل الأوّل للوجود، وكشف علّة الحادثات، فوجدوا أنفسهم وقد أُحيط بهم، وأصبحوا محبوسين في آخر لحظة من عمر كل شيء: آخر نظرة، آخر كلمة وداع، آخر سلام باليد، آخر وعد، آخر حضن، آخر فرصة، آخر نفحة عطر!

الذين تصوّروا أن بإمكانهم تغيير العالم/الأشخاص/الحالات، فأخذوا نَفَسا بحجم التخلّي، واستخلصوا أنفسهم من كل شاغل وباطل، وفرّغوا إنسانيتهم من كل حادث وقديم، ثم جدّوا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق، واستقاموا على الطريقة، ومنحوا من ذوات أنفسهم ما منحوا، دون انتظار المثل، وتوقّع العطيّة، ومدّوا أياديهم -بيضاء من غير سوء- بالسلام والطمأنينة والمحبة والطبطبة والتعلّق، ثم فتحوا أعينهم، ذات مواجهة، على قبحٍ أعمق من أن يفهموه، وخذلانٍ أكبر من أن تحتمله قلوبهم، وضياعٍ أفجع من أن يدفعوا ثمنه وحدهم، وترابٍ عاصفٍ يصفّر ويدوّي، يجتاح مدنهم ويهدم بيوتهم ويقوّض إيمانهم ويدفنهم أحياء مذهولين عطشى وجوعى ومنبوذين!

الذين كانوا على ظهر تيتانيك وهي تغرق، فالتفّوا وتجمّعوا والتأموا في ركن قصيّ، ثم أخرجوا آلاتهم الموسيقية، وعزفوا أروع ألحانهم، فجمّلوا الموت، وألّفوا بينه وبين أرواح مُريديه، ومنحوا الفراق أبعادًا أسطورية، فلم يغرق إلا الذي لم يمسّه لحنهم، ولم يمت إلا الذي فارقهم نحو قارب نجاة، وفرصة حياة لن يُسمع فيها لحن كلحنهم مرة أخرى أبدًا.

الذين إذا ما همّوا بالوصول، بعدت اليابسةُ عن سفنهم، وأَقْعَت تحت أقدام سواهم، وكلّما أوشكتْ أصابعهم على الإطباق، تفلّتت منهم الأشياء بلا رجعة، وآوت إلى مَن لم يطلبها ولم يحلم بها أبدًا!!

الذين كلّما استقرّوا، زُلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، فوجدوا أنفسهم في بداية النفق وبداية التاريخ وبداية العِوَز وبداية الفَترة، فلا راحة قاربوا وقارفوا، ولا تعبًا نهائيًا نالوا ومالوا برؤوسهم على صدره، إنما البين بين، والنصف النصف، وحالة اللاحالة، مآلهم الذي لا ينفك يفتح فاه للهو بهم، قبل أن يُطبق فكيه على الرقاب والقلوب والاحتمالات!

الذين يكابدون فلا يصرخون، ويبكون فلا تخرج من عيونهم دموع، يتكلّمون بغير كلام، ويسيرون بغير خطو ولا أقدام، تحسبهم حضورا وهم غائبون، مستلبون، مفارقون، حتى إذا حان الحين، وأزفت الآزفة، وانكشف الستر، تقشّرت جلودهم عن أرواح امتلأت بالثقوب، وقلوب لم تعد بها شرايين، ومساحات من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشغف العفيّ، توحّش فيه الصبار، حتى نتف أوراقه، ولم يعد فيه سوى حفر سوداء خائنة، يفوح منها دخان الهزيمة!

الذين أحبّوا، فخُذِلوا، فجُنّوا!

لكن..

هل كان بإمكانهم ألا يقتربوا؟

أن يظلوا على الشاطئ القريب، حيث الأغيار والفرص المستهلكة والفشار وmbc2 وعروض كارفور الهزيلة، ويبتعدوا عن الصخور المدببة والرمال المتحركة وأسماك القرش والقرارات المصيرية وجنون الهوى؟

هل كان بإمكانهم أن يظلوا ساكنين في الخضم، هادئين في الاضطراب، قانعين في الجشع، ماضين في طريقهم الذي حدّدوه لأنفسهم، على غير الهوى والتوقع، دون السعي لبراح الإجابات، وعلقم التجربة؟

هل كان بإمكانهم التعالي والتماسك والتخلّي والتقوقع والابتعاد حدّ الانفصال عما يجري حولهم، وإغلاق قلوبهم ومسام أرواحهم أمام النفحات والفيوض والنُذر والإشارات؟

هل كان بإمكانهم تقبيلُ الموتِ قُبلةَ الحياة، وارتداء أكفانهم، والجلوس في قعر قبورهم، والقنوع من الغنيمة بالفرجة، ومن الخوض بالترفع، ومن المغنم بالسيرة الطيبة وسلامة القلب من الندوب؟!

ربما..

لكن المحنة، قِدْرٌ، ينضجُ القلبُ فيها بالمكابدة، ويصمد بالتفويض، وينجو بالتسليم، ويخرج باليقين، ويستقيم على الطريقة برؤية الرحمة في باطن العذاب، والجمال في عمق القبح، والنوال في عين المنع، لأن الأسباب كلها وإن اختلف ظاهرها، باطنها الله.

وهم أبناء المحنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأينما وجدتهم...

لا تحسبّنهم غافلين، أو نافرين، مُقبلين أو مُدبرين، راغبين أو زاهدين، هم فقط: مكتفون، مكتملون بالخذلان، ومتأجّجون بالتخلّي، عابرون للآنيّ والمؤقت والمباشر، ومتّصلون بالسر الأعظم للوجع، وقاطنون على الجانب الآخر من الحقيقة، وعائشون في يوتوبيا الفتوح، فلا تحاول الاقتراب منهم أو الابتعاد، الحديث أو الصمت...

فقط أَدِر عيونك عنهم، وارفع مقتك وغضبك ولسانك، وفارقهم بالمعروف، وامدد لهم بساط الذل من الرحمة، واتركهم دائرين في أفلاك ذواتهم، غائصين في معادلاتهم الكونية، التي حدودها الشغف والترقّب والكشف والحلول والتمنّي والوقوف بباب الكريم، أملا في الحصول على إجابةٍ أعيتهم، وفهمٍ أضناهم، ورحمة تشققت قلوبهم شوقا إليها.

براح الهزيمة

تبدو السماء قريبةً جدا -كيد حبيبتي فوق جبيني ساعة كنت محمومًا- بياضُها يتخبّأ رويدًا في حُمرة مموّهة، لا تلبث أن تنقلب سُمرة مع انسحاب أشعة الشمس، ولواذها بديارها، فيما ذرّات الهواء تشتبك مع بعضها في رقصة مجنونة، قبل أن تعبر نافذة القطار المفتوحة بأريحية، وترتطم بوجهي، حاملة إليّ ذكريات عمر مضى، وتفاصيل كنت أتصور أني فقدتها، وذوّبتها في صديد برودي وغروري وعبادتي لذاتي، فإذا بها قابعة في ركن مظلم، تختزن تجاهلي لها، وإصراري على العيش دونها، تنتظر لحظة سهو واحدة، حتى تنهض وتتعملق وتمدّ مجسّاتها وأذرعها فتطوّق اللحظة، وتأكل التاريخ!

أشعر بشجن ما، بحنين غامض، بنزوع إلى البقاء وحيدًا مع تركتي الثقيلة من الأحلام، برغبة عارمة في البكاء، بإرادة عليا تطل من اللامكان وتنحشر في المساحة المستحيلة بين إرادتي وجنوني، فتجعل كل ما تفلّت من بين يدي فيما مضى ذهبا، وما بقى فى جعبتى، للأيام المقبلة، ترابا فى تراب، وباطلا فى باطل!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينـدفع القطـارُ، الـذي يحملنـي مـن شـربين إلـى القـاهرة، عـابرًا مساحات شاسعة من الأرض والزمن، محدثا أكبر قدر من الجلبة والغبار، حتى يبدو -للناظر من علٍ- كوحش يغلي غضبًا، يسعى بكل قوته للحاق بفريسة شاردة!

أتذكر أيام جامعة المنصورة...

(صداقات تدرج نحو الأسطورية، ورفاق متعشّقون كالأرابيسك في قصص حب ملتهبة، ووعود مغلّظة، ومشاعر يقظة ومتحفزة، وأحلام باهرة، وأمنيات لا تغيب عنها الشمس، ثم.. لا شيء!)

كـورس البرمجـة الـذي أخـذته طـول ثمانيـة أشـهر عقب انتهاء الكلية...

(صداقات تدرج نحو الأسطورية، ورفاق متعشّقون كالأرابيسك في قصص حب ملتهبة، ووعود مغلّظة، ومشاعر يقظة ومتحفزة، وأحلام باهرة، وأمنيات لا تغيب عنها الشمس، ثم.. لا شيء!)

عملي مدرس برمجة في معهد خاص سنتين...

(صداقات تدرج نحو الأسطورية، ورفاق متعشّقون كالأرابيسك في قصص حب ملتهبة، ووعود مغلّظة، ومشاعر يقظة ومتحفزة، وأحلام باهرة، وأمنيات لا تغيب عنها الشمس، ثم.. لا شيء!)

الخروج من الشرنقة، والسفر إلى القاهرة، والعمل في العديد من المؤسسات الصحفية...

(صداقات تدرج نحو الأسطورية، ورفاق متعشّقون كالأرابيسك في قصص حب ملتهبة، ووعود مغلّظة، ومشاعر يقظة ومتحفزة، وأحلام باهرة، وأمنيات لا تغيب عنها الشمس، ثم.. لا شيء!)

دائما اللاشيء هو الجائزة الكبرى التي تنتظرك في نهاية الطريق، وكل ما يسبقها تمهيد لها، وإن ظننتَ العكس!

الحيـاة تقليـدية جـدًا، وفقيرة الخيـال لـدرجة مُفزعة، ولا تعرف سوى الدائرة لهندسة علاقات بَنيها، ويمكنك بشيء من التبصّر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعدم الغرور، والنزول إلى أرض الواقع، توقّع نهاية كل طريق تسير فيه، قبل حتى أن تخطو خطوة واحدة.

لكننا الذين نرفض هبة البصيرة، ونُغمض أعيننا إزاء كل النُذر، ونُقرر إكمال الطريق ونحن نقول بسخرية: هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط. نحن مختلفون، وساعة الصفر: نبكي مرتين، مرّة من أثر الملامسة، ومرّة لاكتشافنا أننا الآخرون!

كلّ الذين أحبّوا، لم يتوقّعوا الفراق، وكل الذين ضحكوا لم ينتظروا البكاء، وكل الذين حلموا لم يفكّروا في الخذلان، وكل الذين ساروا على الدرب، أملوا في الوصول، ثم...

لكن..

هل الهزيمة سيئة؟

في الحقيقة، الهزيمة رائعة، ومُحيية لأقصى درجة، لأن النجاح يُغلق دائرة التوقعات تمامًا، ويضعك وجهًا لوجه أمام ما تمنّيت، دون انتظار المزيد، أو المغاير، وهو ليس أمرًا ممتعًا كما تتخيّل، بل في غاية الخطورة، إذ يفقد كلُّ شيء قيمته فجأة بالوصول إليه، ويأخذ مكانه على رفوف الاعتياد والألفة، ومع الوقت يتحوّل إلى عبء، ومشقة، ومحنة، ويدفعك لإعادة النظر في بديهيات الأشياء، والتساؤل عما إذا كنتَ محقا منذ البداية، في تطلّعك إليه، أم أن الخيال أخذك من يدك وارتقى بك ذُرى لم تكن جديرًا بها، وأمدّك بطاقة على الحلم تتناقض مع استعداداتك الجسدية، وقدراتك العقلية، فوقعتَ في الخطأ الرومانسي القديم، وارتديت عباءة غيرك، وحلمت بأحلام سواك!

والهزيمة، وهي تسلخ روحك، وتُوقفك عاريًا تمامًا في ثلج الخذلان، وتجزّ شعورك بالأمان للأبد، وتُحيل لحظات انتظارك جمرًا في دمك، إنما تعيد خلقك منذ البداية، وتغيير حمضك النووي، وتُسرّب إلى روحك القيمَ الجديدةَ التي يُؤمن بها العالم، ويسير على هداها، في سبيله للنجاح، والتخلّص من الضعف البشري السخيف، وقيود العاطفة المُهلكة، وصنع الإنسان الأعلى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي كان نيتشه ينادي به.

أما النجاح، فوقتيّ، وآني للغاية، وربما يقعد بك على ناصيته، تجتر عسله، وتستحلب متعته، دون أن تطمح للمزيد، ودون أن تسعى لاكتشاف بقيّتك، والوصول لآخرك، ومعرفة ما أنت قادر عليه حقًا، وكل الذين هُرسَت قلوبهم، وكُسرت ظهورهم، وتناثرت مشاعرهم كالفراش المبثوث، فلم يأخذوا الأمر على محمل شخصي، ولم ينفقوا ما بقي من أعمارهم في رثاء الذات والتنعّم بشفقة الآخرين، نهضوا من رمادهم، وإن بعد حين، ومدّوا جذورهم أعمق، وخيالهم أوسع، وأقاموا في المجد.

النجاح، في وجهه الآخر فشل، وانحيازٌ للمتاح والممكن، فيما أن الهزيمة نضجٌ، وطريقٌ للإنجاز، للوصول إلى حقائق الأشياء وجواهرها دون مظاهرها المُدلِّسة والزائفة والمبهرجة والخائنة، اتصال بالدائم الثري، وفكاك من الآني المستهلك، حلولٌ فيما يستحق، ووصولٌ بعد مكابدة ومكاشفة وابتلاء.

الحياة، في جوهرها الأعظم: محنة طاحنة، مشروع وحشي، غير عادل، قائم على الفقد، واستغلال الضعف، والامتهان، والخذلان، والفراق، والاستلاب، والألم، والحزن، فمن جلس تحت شجرة في انتظار سقوط ثمرتها بين يديه، ومن قنع من جبل الجليد بقمته السابحة فوق الماء، ومن استنكف الخوض في غمار المستنقع، لم يعرف حقيقة ما يواجه، ولم ينل إلا فتات حقّه، وظل مستلبًا بالمظاهر دون الأسباب، وعائشا في وهم لا استفاقة منه إلا بالموت.

فإذا أتاك الوقتُ الصعب، ادخله وانفجر، صلّ له، وقدّم القرابين، باركه، انغرس فيه بقلب مملوء بالمسرّة، ونفس مفتّشة عن المختلِف، وواثقة من وجود باب للخروج على البراح، وسلم للصعود لغير المرئي. توحّد وتألّم وابكِ وترنّح واصرخ، ليتقشر جلدُك عن آخر، وقلبك عن منتَهى، اقتربَ، فعايَن، فكابَد، فاحترق، فأدرَك، فوعَى، فتفتّحت عيناه على نور باهر، وحياة مغايرة كانت تختبئ خلف المِحنة، فأضاء لنفسه ولمن حوله، وأدرك الطريق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقيقي الذي ينبغي له إنفاق ما تبقى من عمره للسير فيه.

يتوقّف القطار في المحطة، أنهض، أحمل حقيبتي، وأمضي عبر الباب الذي بدا أكثر اتساعا الآن، متحاشيًا الاصطدام بالبشر الساعين من حولي في كل مكان.

الضربة!

تأتي الضرباتُ دائمًا من حيث لا تتوقّعها: صديق أكلتَ معه عيشًا وملحًا ولا تنتظر منه إلا كل إحسان، حبيب وفيّت له وأطعمته حبّة قلبك وسقيته ماء عيونك، أملا فقط في أن يُبقي يديه في يديك، أخ أكلتَ معه على المائدة نفسها، وارتديت لبسَه نفسه سنواتٍ، ولا تنتظر إلا أن يكون في ظهرك.

وتزداد قوّة الضربة ألمًا، عندما تكون بيدِ من نحبّ!

ونحن إذا نكبر، ونحتكّ بالحياة والناس، ونسيرُ على الدروب حاصدين خبرةً في ذيلِ خبرةٍ، وعِبرةً في كَنَفِ عِبْرةٍ، نتصوّر أننا نضجنا، وأصبحنا أكثر قدرة على تلقّي الضربات، دون أن نهتز أو نسقط، أو نرفع أصواتنا بالشكوى، أو ينكسر لنا ضلعٌ أو قلبٌ. أكثر قدرة على التعامل مع مختلف المواقف، بما يضمن لنا تحييد آثارها السلبية، والفوز بما فيها من إيجابيات. لكننا -في كل مرة تقريبًا!- نكتشف سذاجة هذا التصوّر، وملاءمته أكثر لمسلسل رمضاني رخيص، لا حياة زاخرة بالمُدهِشات!

فالحقيقة أننا لا نتعلّم من أخطائنا، ولا تقوى ظهورنا بكثرة التجارب، ولا نعتبر بسقوط غيرنا، ولا نصل في لحظةٍ لثباتٍ انفعاليٍ يقينا شرَّ الصدمة ورعب المفاجأة. وفي كل مرة نلجأ للخطة ذاتها الأكثر شيوعا وفشلا في الوقت ذاته: الارتجال.

نرتجل بشجاعة المُسَاق، وقوّة المضطّر، ويأسِ المحاصَر في الركن، دون أي ضمانات من أي نوع، أو وعود بالوصول للكأس، ندخل بصدرنا العاري، ونتصدّى بتركتنا الثقيلة من الموروثات والحِكم منتهية الصلاحية، ونقارب. ولأن الحياة ليست عادلة على طول الخط، فلا يعنى أداؤُنا ما علينا نوالَ ما نستحق، لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعني سيرُك وفق الخطة الموضوعة -كما يقول الكتابُ بالضبط- الوصولَ لهدفك أو تحقّق مأمولك.

دائمًا هناك جعبةٌ مليئة بالمفاجآت، تنتظرك في مكان ما، لتقلب الترابيزة فوق رأسك، وتعيدك أميالا للخلف، تجرح قلبك وتكسر روحك وتشرخ خاطرك وتُرغم عينيك على الجود بمائهما!

والحل؟

لا تنتظـــر أحدًا/موقفًا/وظيفة/حبيبًا/صـــديقا/وعدًا/مفاجأة/ تغييرًا/ معجزةً/ ردَّ فعل، أو أي شيء على الإطلاق!

عش في الحياة عابرًا، تُلقي نظرة سريعة ومتعالية على الحدث، من منظور عين الطائر، تستكشف، تفهم، لكن لا تُقِم، لا تمكث أكثر من موجة، أو هبّة ريح، أو قُبلة، لا تبَنِ قواعد أو تمدّ جذورا أو تغرس ثمارًا، لا تُطِل، لا تنغرس، لا تتورط، لا تُخفف السير فتدرِكَ، ولا تطل التأمل فتتعلّق، لكن أسرع الخطو، لتأخذ زهوة الأشياء ومقدّماتها دون مرَارها، وفارقها قبل أن تفارقك. لا تحبّ ولا تتعلّق ولا تُغرم ولا تطمح ولا تحلم ولا تأمل ولا تنتظر ولا تتوقع ولا تتعشّم. تذوّق ولا تأكل، ارتوِ ولا تنهل، تنسّم ولا تعبّ الهواء، كن فوق كل الأشياء، وعلى رأسها، لا تحتها أو في جوفها.

ثم الأهم: انزع فيشة الدهشة من قابس قلبك للأبد. فكل ما لم تتصوّر حدوثه، يحدث، وكل ما لم تَرُمْ وقوعَه، يقع، وكل من تعشّمت فيه.. يُفارق، وكلّ ما بنيته من أحلامٍ وأمنياتٍ وخططٍ أنفقتَ فيها الساعات، وجلستَ بعدها على قمة هذا العالم منتشيًا.. وهمٌ مخدِّر، بلا مستقبل، ولا موضعَ قدمٍ له حيث يُصنع التاريخ، و"تُستَّف" الأقدارُ!

لكن الثغرة الوحيدة في هذه الخطة: أن الإنسان جُبِل على حبّ التملك!

نفسُه تواقة، وعيونه زائغة، ومخّه يعمل بالنظر وباللمس وبالتفكير، فيشتهي، وما إن يشتهي، حتى يفغر الفخُ فاه، ويبتلعه أصبعًا أصبعًا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان، لأنه فانٍ، يسعى للخلود، والبقاء بعد رحيله أجيالا، فيصنع نسخًا منه -شقية وبائسة مثله أيضًا!- فيحبّ ويتزوّج ويُنجب ويشتري العقارات ويؤلّف الكتب ويدبّج المقالات ويصنع الأمجاد. وربما يدوس في سبيل ذلك على كل شيء. لكنه لا يهتم، لأنه يتوحّد مع فعله، ويتخيّل أنه معصوم من الخطأ، فيما أن أغلبنا معصومٌ من الصواب!

أغلب الذين يحبّون، معصومون من الصواب، أغلب الذين يكرهون، معصومون من الصواب، أغلب الذين يحتاجون ويتطلعون ويأملون، معصومون من الصواب، وأغلب الذين شبعوا حتى امتلأوا، معصومون من الصواب!

في الواقع.. أغلب النوع الإنساني معصوم من الصواب!

لكننا نكابر!

وأنتَ إذ تقع، وفيما تتلقى الضربةَ في قلبك، وفي روحك، وتترنّح، وتتشحّط في دمك، لا تنتظر يدًا لتُسندك، لأنها إن جاءتك، كان وراء ذلك ثمنٌ سوف تدفعه لاحقًا -ربما كان أقسى من الضربة نفسها!- وإن لم تأتِ، جرحك ذلك وكشفَ لك تهرّؤ علاقاتك، وهزّ في عينيك مثالية العالم التي تحاول العيش تحت أشجارها الوارفة، فيما إذا لم تتوقّع لا خيرًا ولا شرًا، نجوتَ وإن مصابًا مجروحًا، وفزتَ دون ديون أو "جمايل".

وأهمّ شيء: أن تُدرك بالضبط حجمك، ومدى ضعفك، وضآلتك في كُرةٍ أرضيةٍ أحقر عند الله من جناح بعوضة، وهوانك على من تُحبّ، وعبثية كل شيء، ونسبيته، ومحدوديته، ولا جدواه، فتتخلّص من غرورك، وتنزل من عليائك، وتشق طريقك في الحياة كما ينبغي لك لا كما تتمنّى، وكما يجدر بك، لا كما تتصوّر أنك قادر عليه.

وإذا ضاقتْ عليك نفسُك بما رحبتْ، واختلفتْ عليك أضلاعك بما اتّسعت. إذا شعرتَ بحزّ السكين على عنقك، ولطمة سهم غادر استباح قلبك، إذا عاينتَ وناظرتَ وقارفتَ الألم الحقيقي الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خُلق ليبقى ويتعملق ويعشش بين جدران الروح للأبد، كوشمٍ، وكإرادةٍ، فامدد يمناك بلا تردد واسند بها يسراك، وقف وحدك، وامض وحدك، وتألّم وحدك، فما حكّ حزنك مثل ظفرك.

لا أنت تفعل ما تريد.. ولا أنا أيضًا!

سأُخبرك سرًا.

ثلاثة أرباع الناس المحيطين بك، والذين تتصوّر أنك تعرفهم كظهرِ يدك، والذين يُلقون النكات طول الوقت، ويشاركون صورهم "والفرحة بتنط من عنيهم" عبر فيس بوك: غير حقيقيين، ولا يتصرّفون على طبيعتهم أمامك، ولا يفعلون كل ما يريدون أبدًا، ولا يتفوّهون أمامك بنصف ما يريدون قوله لك، لأنهم يخافون القيل والقال والعادات والتقاليد والعواقب والتبعات وبابا وماما وطنط وعمو وأونكل وحرارة الصيف وخرطوم الغسالة و... و...و....

يخافون تغيير صورتهم أمامك، أو اختلاف معاملتك لهم، بناءً على ما اكتشفتَ عنهم!

يخافون البراويز الحديدية التي صنعناها لهم، وحشرناهم فيها، والكتالوج الذي ننتظر منهم السير على بنوده، كحد السيف، بلا تأخير أو تقديم، أو مفاجآت ليست في الحسبان، فيتحرّكون في حدود ضيقة للغاية، وخطوط مستقيمة، لا تمثّل أحلامهم ولا تعبّر عن قدراتهم ولا تلبّي طموحاتهم، رسمها المجتمع والناس، لا أنفسهم، خطّها آلاف العاديين قبلهم، الذين ساروا على الدرب نفسه، وفعلوا الأشياء نفسها، ولم يملكوا الخروج عليها أو مخالفتها أو تكسيرها، والبدء على "نضافة".

ونحن في سقوطنا المروّع، واستسلامنا المدوّي لمن حولنا، لا نصارح أنفسنا بالحقيقة، ونحرص على ألا تقع أبصارنا على أنفسنا ونحن نرتدي الملابس المسرحية، ونضع الأقنعة، ونتحرّك وسط قطع الديكور المعدّة سلفا، كي لا نبدو في صورة دونية، وتتمزق ورقة التوت التي نستر بها إيماننا الهشّ بما نفعل، إنما نردّد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعارات فخمة، عن القضاء والقدر، والمسؤولية الكونية، واختيار الله، ونرفع لافتات مكتوبة بالنيون عن واجبنا المقدّس نحو الآخرين، ودائرة الحياة، والأمانة التي اختصنا اللّه بها، وصولا للاعتقاد يقينا بأننا شهداء، وأن موعدنا الجنة!

وهو الهراء بعينه كما تلاحظ، فمَن لم يدخل جنة الدنيا، لم يدخل جنة الآخرة، ومَن لم يختر مصيره في الحياة، لن يختاره يوم الدين، فنحن لم نأت الدنيا لنتعذب، ونحاسِب على مشاريب الآخرين، ونُفني حيواتنا في حيوات غيرنا، أيا كانت درجة قرابتهم لنا، هذه تضحيات لم يطلبها أحد منّا، إنما نحن الذين نبذلها طوع إرادتنا، لنشعر أننا أفضل من الآخرين، وأكثر سموًا، وأقرب إلى الله من هؤلاء الكفرة الذين يعيشون حياتهم كما يتمنون، بل -تصوّر الفُجْر- ويستمتعون بها!!

الناس مساكين، لكنهم السبب في مَسكنتِهم، فهم الجاني والمجني عليه، الظالم والمظلوم، الجلاد والضحيّة، فلا أحد يريد أن يفرّ من هذه السجون، ويكسر حجارتها، ويفرد يديه في الهواء، ويقفز و"يتنطط" ويغنّي بحرية!

لا أحد يريد أن يغيّر المتعارف عليه، ويكون رائدًا في اكتشاف مجاهل الحرية الحقّة والإرادة الإنسانية التي تستحق التقديس.. لماذا؟ لأنهم يحصلون على مقابل وهمي إزاء هذا، اسمه احترام الناس والعائلة، اسمه التقبّل المجتمعي والاعتراف بعضويتهم في الجامعة الإنسانية، ويتصوّرون أنهم إن فقدوا ذلك، لن يتمكنوا من التنفس والأكل والشرب والحركة للأمام والخلف!

وهم على خطأ بالقطع.

محمد بن عبد اللّه تمرّد على الجماعة الإنسانية، وأتى بما لا يتفق مع معتقدات قومه، وكان الحق.

جاليليو خالف علماء عصره، وجهابذته، وقال إن الأرض تدور، فحبسوه في بيته، ومنعوه من الخروج، لكنه كان على حق.

كوبرنيكوس حطّم الغرور الإنساني، وقال إن الأرض تدور حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشمس، وليس العكس، ولقي ما لقي من السخرية والتكذيب، لكنه كان على حق.

وكل هؤلاء اعترف بهم المجتمع بعدها، ودان لهم بالولاء.

فنحن الذين نصنع المجتمع، ووجودنا سابق على وجوده، ودوننا لا وجود له.

وحركتنا الآلية حول أصنام المجتمع-التي تنتظم قطعان الماشية والبشر على حد سواء!- وإن كانت منتظمة ومتدفّقة ومريحة، فهي بلا روح، ولا مستقبل، ولا يمكن أن ينتج عنها إبداع حقيقي، أو بهجة، أو مساحات وصل وونس.

وهو ما يمكنك أن تمدّ يدك وتلمسه بسهولة، في لحظات السرحان والتوهان التي تسيطر على هذه القطعان، في فقدانهم الرغبة في الحياة، وانكسارهم لدى أقلّ لمسة، في افتقادهم للهدف والغاية، في توقف أحلامهم عند الأمان المادي، دون أن تتخطاه للتأثير والإضافة لرَكب الإنسانية، في ذبولهم وموتهم بالبطيء، وتحوّلهم التدريجي من بشر إلى ماكينات ATM.

ولو كان هؤلاء يفعلون ما يحبّون، وما يتوقون لفعله حقيقة، لما كان هذا حالهم!

والمشكلة أن الإنسان لا يملك إلا حياة واحدة، إن أنفقها بقشيشا على حيوات الآخرين، فمتى يعيش؟!

أما الأزمة الأكبر: أنك ستستفيق يومًا، بعد أن تصل لنقطة الصفر، وتشعر أن العمر جرى، والشباب طُويت صفحتها، والوقت المتبقي لم يعد في صالحك، دون أن تفعل شيئا ذا قيمة، أو تعيش لحظة حقيقية، ووقتها، سترغب في تحطيم كل شيء، وأي شيء، حتى الأمجاد التي تصوّرتَ يوما أنها تستحق ما تبذل من أجلها، وربما نفسك أيضًا التي رضختْ للابتزاز المجتمعي، وارتضتْ لك أن تتورط في "شبه الحياة" التي عشتها!

ولن تقف أمامك حدود أو عوائق يومها، ولن تمثل الخبرة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اكتسبتها في مشوارك أي رادع أو فارق أو معين، ستشعر بالجنون، بالنهم، بالسعار، والرغبة في تجربة كل شيء، وأي شيء، حتى ما كنتَ ترفضه أخلاقيا أو دينيا، وستخلق لنفسك آلاف المبررات، وتندفع في طريق طويل طويل، ليس أفضل ما تسير خلاله في هذه المرحلة من حياتك، ولا أجمل خاتمة لتاريخك المليء بالخذلان!

لكن المؤسف، أنك حتى إن فعلتَ كل ما تريد، في هذه اللحظة العاصفة من حياتك، فلن تشعر بالإشباع والريّ والاكتفاء والرضا والأمان، فقد فات وقت كل هذا، وما تعيشه الآن، محاولة للحاق بآخر عربة في القطار، بعد أن كان أمامك الركوب في عربة مكيّفة، للفرجة ومشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة، بينما تمضي في سبيلك بتؤدة، نحو هدف تعلمه جيدا!

والذين نعمل لهم ألف حساب اليوم، ونخزّن حياتنا، ونخفي حقيقتنا، من أجلهم، الذين "نبدّي" حياتهم على حياتنا، ونتصور أنهم سيقدرون مستقبلا، الذين نرهن أعمارنا وأحلامنا على عتبات احتياجاتهم، لن يكونوا معك يومها، ولن يمدّوا أياديهم ليُطبطبوا روحك التي تحترق، ولن يحتضنوا قلبك الذي ينبض بقوة بعد أن اكتشف الفخ الذي أطبق عليه، لن يكون هناك -كالعادة- سواك، والفاتورة الضخمة التي رغم أن اسمك مكتوب فيها، فإن جميع طلباتها لم تكن لك يوما!

ويومها سيعيشون..

وتموت!

لديّ الكثير جدًا لأقوله لك

هذا أوّل عيد ميلاد لكِ، يأتي وبيننا البلادُ والناسُ والعِندُ والفَقدُ والخذلانُ والقَدرُ! وبدلا من أن تكوني بين أحضاني، نقصّ شريط عام جديد، ونزرع في رأسه حلمًا لا يلين، كلانا يُوقّع باسمه ثلاثيًا في دفاتر التعاسة!

لكن..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس مُهمًا أن تكوني معي الآن، أو غدًا، أو بعد سنة.

آخر لقاء بيننا.. غافلتُكِ، واختزنتكِ جزءًا جزءًا في ذاكرتي: اتساع عينيك لحظة الملامسة/ انغراز أظافرك في لحمي/ تعشّق أنفاسك في أنفاسي/ «اللافا» من شفتيك في شفتي.

يمكنني في أي لحظة أن أستعيدك.. وأعيد تركيبك/ صنعك/ اختراعك/ وصلك.

المسافات وهمٌ.. والبعدُ أسطورةٌ يُخيفون بها التلاميذ الصغار والمبتدئين في الحب.

لا أتركك حين أتركك.. لا تغيبين عنّي حين تغيبين.

إذ لا يعدو الأمر كونه هدنةً بين وصلين. أحدهما بلُغة الأرض والآخر بلُغة السماء.

تعرفين؟

حاولتُ عبورَك مرّات عدّة..

بِزرعِ رأسي في العمل حتّى أنبَتَ صبّارةً كبيرةً تُظللني وتُظلل رفاقي في المكتب..

بالانغراسِ في صخب الصحاب وجنونهم حدّ الفجيعة..

بالسير بلا هدى في شوارع خالية من البشر ومليئة بالهموم..

بإغلاق مسامّ الإحساس نهائيًا ونزع فتيل الدهشة من روحي..

بالصراخ بأعلى طبقة صوتية حتى يفقد الصوت صوته..

بالتمرّغ عاريًا بين أثداء الحروف، وعلى خصور الورق الأبيض، لإنجاب القصيدة المستحيلة..

بخمور رديئة كي تعجّل بنهايتي، أو تُفقدني الذاكرة..

بنساء يفقنك فتنةً وإغواء، يرفعن السكين على رجولتي بمجرّد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرة..

بالتدخين بسرعة 24 سيجارة في الثانية، لأفسد رئتيّ اللتين كانتا تتنفّساكِ، أو أنسى حرائقك في دمي بحرائق النيكوتين!

لكن..

في كل مرة..

كان خداعي لنفسي يتهاوى، ويتكشّف عن هزيمة مُخزية، فور أن تطلّ عيناك من وجه أي امرأة تمضي جواري..

أو تنطق إحداهنّ حرفا من كلمة سبق أن ارتشفَتها أذناى من شفتيك..

أو يرنّ صوتك فجأة من العدم لينطق اسمي بتلك الطريقة التي لم يُتقنها سواكِ!

فأتنبّه كميّت حي..

كرَبٍّ منح عبادَه كلّ ما لديه، ولم يعد لديه ما يسدّ رمقه..

وأتأمّل مخذولا مستباحًا حقيقة أنه لا يمكن استبدالك أبدًا!

وأننا نستطيع خداع كل شيء..

عيوننا ومشاعرنا وأصدقاءنا ومديرينا في الشغل، وجارنا في المواصلات، وبائع السوبر ماركت..

عدا قلوبنا!

كنتُ أرضَى مِنكِ بأقلّ القليلِ.. فقليلُك أضعافُ أضعافِ كثيرِ سِواكِ!

لكن القليل ظل يتضاءل حتى اتّسع الرتق على الراتق، وحمّ القضاء، ولم يعد هناك مفرّ من فِراق، يورث القلب حسرة، والروح ندمًا، والعمر جرحا لا يندمل!

كما يشعر الموشكون على الموت بالنهاية، وإن غفل عنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحيطون بهم، وسخروا منهم.. نشعر بالفراق.

نتلمّسه في الجمل التي لا تكتمل..

في العيون التي تهرب من التحديق..

في الأصابع المُرتعشة التي تفشل في الإمساك بأي شيء..

في الشفاه التي تُفرط في الانفتاح والانطباق دون أن تصدر عنها كلمة..

في النَفَس الواجف المهزوم المتردد إذا دخل أن يخرج مرة أخرى..

في دقّ القلب العاني الذي يتفجر عاويًا وإن أخفاه القفص الصدري!

نشعر بالفراق..

فنرفع أيدينا في استسلام العاجز، وقهر المُساق، ونرقد على ظهورنا في ركن الحياة، ونُغلق أعيننا وأرواحنا وتفاصيلنا للأبد..

ونصمت.

لقد مضى العمر، دون أن نقول نصفَ الذي تمنّينا قوله، أو نفعل رُبع الذي تمنّينا فعله، أو نختار عُشر الذي تمنّينا اختياره!

ربما في المرة المُقبلة التي نأتي فيها إلى الحياة، نكون حقيقيين أكثر..

ربّما!

والآن أتذكر..

كانتْ هناك أيام، أستيقظ فيها من تلقاء نفسي مبكّرًا جدًا، دون منبّه لحوح، ولا اتصال من صديق!

كنت سعيدًا وأريد أن أقابل العالم، وأُدردش معه قليلا ونحن نشرب شايًا بالنعناع ونستمع لمزيكا رائقة، قبل أن أرتدي أفضل ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندي وأُهرع لقطف ابتسامة صباحية من جنّة حسنك!

أيام مجيدة، كنتُ خلالها قادرًا على فعل كل الأشياء التي أعجز عنها الآن، ومقابلة كل البشر الذين أتهرّب منهم الآن، والوفاء بكل (الديد لاينز) التي ستجري ورائي -حتما- يوم القيامة!

أيام.. كنت فيها -فعلا- أفضل، وأقوى، وأحدّ بصرا وبصيرة!

ومنذ رحلتِ..

ضاعت مفاتيحي، فما عاد لي باب أدلف إليه، ولا نافذة أطل منها على الليل، ولا فراش أريح عليه أحلامي، ولا منضدة أتناول قهوتي السوداء عليها بصحبة الوحدة.

وبات الحزن -شفقةً- يتبرّع فيفكّ لي رابطة عنقي يوميًا، ويفتح أزرار القميص العلوية، ويدلّك صدري، ثم ينصحني بالاسترخاء قليلا بين ذراعيه، فلم يعد لي سواه عصا أتوكّأ عليها وأهش بها على أوقات فراغي.

وتكدّس التاريخ في يومٍ واحدٍ مُملٍ، راح يتكرّر بلا كلل، فلم نعد نسير للأمام، أو نتحرك خطوة واحدة، إنّما نحن جلوس القرفصاء في المكان نفسه، نمرّ بالشيء نفسه ملايين المرات دون تغيير!

انكسرتْ زُجاجة الرحمة، وتناثرت ألف قطعة أو يزيد، وباتت بقاياها تُدمي ولا تُجبر، تحرق ولا تداوي، وتوجع ولا تطبطب!

واكتشفتُ أن لديّ الكثير جدًا مما كنتُ أريد أن أقوله لك، ولا أدري لماذا لم أقله! لماذا لم أطلق سراحه فيستوطن قلبك، بدلا من تقافزه الآن في روحي، يكاد يزهقها، رافضا أن يذهب لسواك، أو يبقى ساكنا كيأسي!

...

مع أن كل شيء قد مضى الآن..

وودّعنا أرصفة الأمان، وغادرنا شوارع الدفء والمودة.. للأبد!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

ولم يعد ينبت بيننا.. غير صبّار الألم والوحدة وفرط التَّوق وملايين الأسئلة

كل عام وأنت بخير.

تمارين يومية للوقوف على قدم واحدة

الحزن عميلُ الشتاء السرّي، يتسلّل مع أوّل نسمة باردة تطرُق الأبواب، وأوّل قطرة مطر تغسل الشوارع، فيفتح خزائن الذكريات، ومغارات الهزائم، وأقبية الحنين، يعيث فسادًا في المشاعر، يُحرّر الشوق من سلاسله، يُطلق الوجع من محبسه، يكرّر نفسه كالفيروس على كل جدار، لتجد نفسك في النهاية أمام جيوش كل شيء: الخوف والألم والرهبة والإشفاق والوحدة والذكريات والفقد والخذلان والمرارة والفجيعة، دون أن تملك في المواجهة سوى الصمت، ونظرة عين تريد أن تقول كفى، لكنها لا تعرف فعلا كيف تفعلها!

أكره الشتاء كما أكره الحقيقة، وحبيبتي التي مضت دون وداع، فسلخت روحي، وسحبت معها ما بقي من إيماني بأي شيء، ومديري الذي لا يرى فيَ إلا يدًا تكتب، وعينا تستخرج الأخطاء، مُركّبة على "شاسيه" بأقدام لا تجيد سوى الحضور للعمل، وبائع الخضراوات الذي يستغلّ جهلي ويعبئ لي ثمارا ذابلة، أو يُنقص ميزانه لثقته أن نظري الضعيف لن يكتشف ما يجري.

أكره عيني الحولاء بوضوح يشوّه الصورة الرومانسية التي أحاول خلقها لنفسي، ولا يمنحني جدية كافية عندما أنظر في غضب، ويقلب الأمر إلى مزحة سخيفة، لا تستدعي الضحك، إنما قلب الشفاه بقرف.

أكره الوحدة والموت والفقد والنهايات وانتظار ما لا يجيئ، أكره الكراهية!

تمتّصني القاهرة كنحلة تقضي وطرها من زهرة، ثم تدفعها عنها لغيرها، وأجدني على رأس كل ليلة أفكر جدّيا فيما أفعله ها هنا، من أنا؟ ومتى ينكشف لي دوري في السيرك الكبير؟ أفتش عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يعد ينبت بيننا.. غير صبّار الألم والوحدة وفرط التّوق وملايين الأسئلة

كل عام وأنت بخير.

تمارين يومية للوقوف على قدم واحدة

الحزن عميلُ الشتاء السرّي، يتسلّل مع أوّل نسمة باردة تطرُق الأبــواب، وأوّل قطـرة مطـر تغسـل الشـوارع، فـيفتح خزائـن الـذكريات، ومغـارات الـهزائم، وأقبيـة الحنين، يعيث فسادًا في المشاعر، يُحرّر الشوق من سلاسله، يُطلق الوجع من محبسه، يكرّر نفسـه كـالفيروس علـى كـل جدار، لتجد نفسك فـي النهاية أمام جـيوش كـل شـيء: الخـوف والألم والرهبة والإشفاق والوحدة والذكريات والفقد والخذلان والمرارة والفجيعة، دون أن تملك في المواجهة سوى الصمت، ونظرة عين تريد أن تقول كفى، لكنها لا تعرف فعلا كيف تفعلها!

أكره الشتاء كما أكره الحقيقة، وحبيبتي التي مضت دون وداع، فسلخت روحي، وسحبت معها ما بقي من إيماني بأي شيء، ومديري الذي لا يرى فيّ إلا يدًا تكتب، وعينا تستخرج الأخطاء، مُركّبة على "شاسيه" بأقدام لا تجيد سوى الحضور للعمل، وبائع الخضراوات الذي يستغلّ جهلي ويعبئ لي ثمارا ذابلة، أو يُنقص ميزانه لثقته أن نظري الضعيف لن يكتشف ما يجري.

أكـره عـيني الحـولاء بوضـوح يشـوّه الصـورة الرومانسـية التـي أحاول خلقها لنفسي، ولا يمنحني جدية كافية عندما أنظر في غضب، ويقلب الأمر إلى مزحة سخيفة، لا تستدعي الضحك، إنما قلب الشفاه بقرف.

أكره الوحدة والموت والفقد والنهايات وانتظار ما لا يجيئ، أكره الكراهية!

تمتّصني القاهرة كنحلة تقضي وطرها من زهرة، ثم تدفعها عنها لغيرها، وأجدني على رأس كل ليلة أفكر جدّيا فيما أفعله ها هنا، من أنا؟ ومتى ينكشف لي دوري في السيرك الكبير؟ أفتش عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق الذي كان واضحا ذات يوم، ثم لم يعد كذلك، وأراجع الأحلام التي كنت أراكمها في جعبتي يوم بدأتُ الرحلة المجهولة، فأصطدمُ بحروف متكسّرة ووحيدة لا تقوى على الالتحام معًا لتكوّن كلمة مفيدة!

لا شيء يُضيء في عتمة الحزن سوى الحب، ومَن لا حبّ له، عبدٌ أسودٌ مصلوبٌ على قارعة الطريق، تأكل الطير من رأسه، رهين ذكريات أذابتها حرارة الشمس، وأفنتها عقارب الوقت، على ذمّة أيام موعودة، تقول الأسطورة إنها خُلقت من أجله وحده ذات زمن، وعلى مقاسه تمامًا، لكنها -في أحسن الاحتمالات- ضلّت الطرق، ولا تزال تبحث عن وسيلة لوصل ما انفصل، واستئناف ما انبَتّ، وفي أسوئها، ملّت البُعد، فحطّت في رحال سواه!

(يهبّ هواء عنيف محمّل بأتربة، تفرش أجنحتها في القلب، تجاهد للتشبث بوريد أو شريان، قبل أن يمتّصها الفيض العارم، ويعيد تسكينها في مكان لم تنتظره. صوت التكسر الذي أسمعه.. لمن؟)

لا أجد الذين أريدهم حين أريدهم، مكوّن سري دائمًا ما يتدخّل في اللحظة الأخيرة، ليفسد تظاهرنا بالمودّة، ويلتهم لحم النفاق حلو المذاق، ولا يُبقي منه سوى العظم النافر كريه المنظر لزج الملمس، يذكرني بالهباء الذي قضيت أراكمه، وأسميه -تدليلا- حياتي!

لعلّي -هذا ليس أكيدًا بالمرّة، لكن لعلّي- أسامح الأصدقاء، فلهم أن يخونوني من حين لآخر، كسرًا للملل. وأسامح الأيام، فلها أن تشعر بوجودها من حين لآخر، بوخزي، ومسح بلاط الاكتئاب بقلبي، وأسامح الليل، فله أن يستأسد عليّ من حين لآخر، ويريني على شاشته أسوأ كوابيسي، وأسامح الحب، فله أن يكون غامضا ومريبا -وربما حقيرا- من حين لآخر، وبيده إبر ساخنة ينغزني بها تحت جلدي، لكني لن -دون لعل هذه المرة لأنني متأكّد- أسامح نفسي أبدًا، حتى إن لم يكن هناك سبب منطقي لأفعل، مسامحة الذات تخلٍ عن ميراث الحقد المقدس في العقل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمعي للحيوانات والبشر على حد سواء، ونكوص إلى ما قبل اختراع الإنسان نفسه.

أُغلق عيني عادة على الحزن، كي أحبسه داخلي، فلا تتسرّب منه قطرة واحدة في فضاء لا أملكه، أرتدي ملابس رسمية سوداء لاستقباله، وأعدّ أقداح البكاء "سكر زيادة"، فأضيّع عليه فرصة اتهامي بالبخل. أحيانا أتساءل في فزع: ماذا لو لم نعد صديقين حميمين في يوم من الأيام؟ ماذا لو أوقع بيننا الوشاة؟ كيف سيُمضي كلّ منا وقته وحيدا خاليا، ثم أفيق على ربتة حانية من يده، وطعنة بيده الأخرى في قلبي، فأطمئن أن رفقتنا ستطول قليلا.

لا أفكّر كثيرًا قبل النزول من المنزل، إن كنتُ سأرجع أم لا (هل الموضوع بكل هذه الأهمية فعلا؟!) لكني أغلق النور إلا قليلا، وأودّع الأشياء بنظرة عابرة تحسّبا، الأمر لا يعدو كونه لعبة، من ينجح في تسديد ركلته أولا، يسجّل اسمه في لوحة النصر، وإن كان الأمر نسبيًا لأقصى درجة، فالكل خاسر في النهاية.

أرشّ الشوارع بنظرات نهمة، تنغرز في الحنايا وتُجرّف التفاصيل، أتسمّع وقع أقدامي على الأرصفة بسلطنة، أمرّر الحياة خُلسة للكائنات التي أعبرها وتعبرني، وأمنحها تذكرة إقامة دائمة في ذاكرتي، أتدفّق ساخنا في عروق الوقت، وأمنح العالم مبررًا محتملا ليوجد يوما آخر.

(الحزن والد ومولود، أب وابن وروح قدس، دين وفلسفة وطريقة، صوفية وبوذية وزرادشتية، أرض وسقف وممر ونافذة).

في أوقات فراغي، أرتّق ثقوب القلب الجديدة على عُجالة، ثم أتفرغ تمامًا للتدرّب على الوقوف على قدم واحدة، والقفز كاللقلق، بعد الخذلانات التي ألقمتني ثديها، لا أحد، يقينا لا أحد، يدري ما الذي يمكن أن يُطلَب منّا غدا، فماذا لو حكمتْ اللقالقُ العالم مثلا، وأمرتنا أن نسير على قدم واحدة؟ ساعتها سأكون الوحيد القادر على الاستجابة، ما يمنحني أفضليةً، عشتُ عمري أحلم بها دون أن أنالها، رغم كل ما بذلته من جهد، لا أدرى ماذا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأفعل بها حقيقة، لكن سأحصل عليها ثم أفكّر.

في الليل، أُخرج زرافتي السرية من تحت الفراش، وأمتطى ظهرها، أصعد لأعلى نقطة في رقبتها، وأملّس على رؤوس النجوم بحنو، لأهبها بعض الطمأنينة، أنا أعرف أن البقاء على هذه الارتفاعات الشاهقة فترات طويلة يصيب بالدوار، ويخلّف في القلب حسرة تحتاج الطبطبة.

هي فكرة عابرة، لكن شاملة إلى حد ما: الحزن قوّاد.

ترسو الأيّامُ على قلبي كوردة ميّتة

أعيش على ذكرياتك، وتعيشين اليوم بيومه دون ذاكرة..

أتمنّى لقاء عابرا يجمعنا، وتتعمّدين غلق جميع الطرق والمسارات والاحتمالات كي نظل في التيه للأبد..

أخافُ عليكِ وأقتفي رائحتك، وتمضين في طريقك بلا مبالاة حقيقية بأي شيء..

الآن أدركُ!

لقد أحببتكِ.. فيما رأيتِني أنتِ مجرّد محطة على طريق سفرك، استرحتِ فيها، واغتسلتِ من غبار رحلة مضنية، وقضيتِ وقتا لطيفا، ثم مضيتِ، دون حتى أن تذكري اسم المحطة!

هل أنا نادم؟

سؤالٌ صعبٌ، ربما تكون إجابته العادلة نعم، لكن إجابته الأكثر رعونة: لا.

لا لم أندم على دخول النار، فأنا من سعى إليها، وأنا من ظلّ، رغم كل ما حقّقه، يعتبر الانصهار في لهبها قمة الإنجاز، وذروة التحديق في عين النعمة!

من حيث أتيتُ، لم يكن ثمة نور ولا بهجة.

فقط مقاعد خشبية مُتعبة، تتسلّد علينا ونتسنّد عليها، في كنف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منضدة متهالكة، يستخدمها الرفاق للعب الطاولة والدومينو على أرواحهم، وتدخين أصابعهم في السجائر، وامتصاص فشلهم في ليّ الشِيَش، ونفث كل شيء: الطموح والأحلام والألم والدخان في الهواء.

رميتُ بنفسي على زجاج انعزالك، فكسرتُه، جرحتُ يدي وقلبي وأنا أمرّ، فلم أبالِ، ألقيت التاريخ والجغرافيا، وما أنجزَتْه الحضارة في آلاف الأعوام، وراء ظهري، وبدأتُ معك كل شيء من نقطة الصفر: الحب والوله والتعلق والصبابة والوجد والجنون.

ثم رحلتِ فجأة، تاركةً بعض أنفاسك على الأكواب، والفِراش، ومقبض الثلاجة، وريموت التلفاز، وصدري، وابتسامتي. هذه خطة بارعة جدًا، فحيثما حللتُ الآن يطالبني كلّ شيء بك، كأنني المسؤول عن رحيلك. تزداد خسارتي بفقد يقين الأشياء بي، ووقوفها في صفّك ضدي، أنت مُصرّة على وضعي دائمًا في موقف لا أُحسد عليه، إذا حللتِ، وإذا غبتِ!

أتدلّى في الوحدة، حتى أصل إلى القاع، وتصطدم رأسي به، فأتصوّر –وفقا للمخيلة الشعبية- أنها مسألة وقت قبل أن أعاود الصعود، في أي لحظة، فتنزاح طبقةٌ أخرى من الغربة، فُصّلت خصيصًا من أجلي، لأتدلّى أكثر!

مشكلتي الكبرى الآن: العثور على مكان لم نذهب إليه معا، كي أواصل حياتي، صديق لم يكن يعرف حكايتي معك، فلا يذكّرني بك في كل دقيقة، ملء المساحات الشاسعة التي تركتِها باقتلاع جذورك من أرضي، التصرّف بالبيع أو الإيجار في أجولة الوقت التي وضعتِها على رفّ قلبي -أين كان كل هذا الوقت ونحن معًا؟!- وإعادة العالم إلى ضبط المصنع.

مشكلتي، أنني تركتُني لديكِ، مُقعيًا في حَضرتك، غارزًا في أيامي معك، أتلو أورادك وألهج بذكرك حتى تفنى دموعي وتنقطع أنفاسي، وما عاد منّي إلى عالمٍ لستِ فيه، لم يكن إلا اللحمُ والعظمُ فقط، دون القلب وإرادة الفعل، فلم تعد فائدة تُرجى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"كأثر الفراشة لا يُرَى، كأثر الفراشة لا يزول"!

أتدثر بلوعتي، وأُفارقُ أرصفة وبشرًا وشوارع وحكاياتٍ ومطرًا ومقاهي ومُدنًا وعوالم وخذلاناتٍ، فترسو الأيّامُ على قلبي كوردة ميّتة، وتسقط أحلامي من النافذة كحديدة صدئة، فأشتعل نارًا في مواقد الوالهين، والآملين، والذاكرين، والخائفين، والقانطين، والعابدين، والمبعَدين، والتائهين، حتى يسكنَ الرماد.. فأسكنْ.

لو كنت..

فقط لو كنتُ أعرف أنه اللّقاء الأخير، لرفضتُ الذهاب إلى أي مكان، وضربت قدميّ بقوة حتى انغرزتا في الأرض، وتجذّرتا، وأنبتتا فروعًا وأوراقا وثمارًا، تُظللنا وتُطعمنا وتحمينا من عيون الناس وعقارب الساعات، وظللتُ أقبض على يدك، حتى تنعجن في يدي وتصبحا يدًا واحدة، وقبّلت شفتيك بوحشية، حتى نتماهى، ولا تعود ثمة فواصل فيزيقية بيننا، فأعيش فيك، وتعيشين فيّ.

كنت سأقبض على لساني من ياقته، وأجرجره لأوقفه أمامك، كتلميذ خائب، فيتلو عليك -بأعلى طبقة صوتية ممكنة- كل ما عجز عن قوله سنوات، وتمنّى -لفرط غبائه- أن تعرفيه بنفسك، وأكشف لك صدري، وأريك كيف يحملك نَفَسُ الهواء الداخل إلى أعمق نقطة، ويخرُج دونك، فيُراكمك فيّ آلافا مؤلفة، ويصنع منك نسخًا لا تموت.

كنت سأبدأ حديثا لا نهائيا بيننا، يستخدم الحروف الأبجدية المعروفة وغير المعروفة حتى لا يتوقف، فأحكي لك كل شيء عنّي مرارًا وتكرارًا، مرة من المنتصف، ومرة من البداية، ومرة من النهاية، حتى اللحظة التي صُلب فيها قلبانا على عمود واحد في نهر الطريق، دون علم بالنهايات الفاجعة، وأغنّي لك ما تيسّر من قصائد العشق، بكل المقامات الموسيقية التي خلقها الله، وأخبرك بكل النكت التي في الدنيا، حتى لا تتوقفي عن الضحك لحظة، وأشرب نور عينيك دفعة واحدة وأمتلئ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت سأفرد بيني وبين العالم -الذي لا أطيقه- مساحات من المودّة والاحتمال، وأبتسم في وجهه نفاقا، كي يعمّدني ويقبلني في معمودية

ماء قلبي

جفّ ماءُ قلبي، وانحسر عن أسماك ميتة، وأصداف، ولآلئ غير مكتملة، ودموع في طور التكوّن، ووعود مصلوبة، وأجنّة أحلام مشوهة، ونساء يغطين وجوههن خشية الضوء، ورجال يعكفون بمنتهى الإخلاص على تضييع أعمارهم فيما لا يفيد، وأبيات شعر وفواتير وطوابير وأقلام نشف حبرها وأطباق متسخة وكوتشينة ومفاتيح وكتب وقصاصات ورق وأعواد بخور ومسبحة وبضع آيات من الذكر الحكيم وقنينة عطر مكسورة وكأس فارغة، ومقهى صاخب، ليتني جلستُ على مقاعده مرّة، وطلبتُ شايا بالنعناع ونارجيلة، ونعمت بدفء الثرثرة، عندما كان ذلك ممكنًا!

لمسني العالم، ولمسته، في لحظة قديمة عابرة، فلم يجد أحدنا ودًا في قلبه للآخر، ولا محبّة ولا أُنسًا، ولا ضرورة لمزيد من السير معًا في طريق واحد، فافترقنا، وسار كلٌّ منا في اتجاه مخالف، مجاهدا ألا نلتقي مجددًا، أو يكون بيننا ما يستدعي تبادل الحديث، ولو بشكل عابر، وعندما يحدث ذلك مصادفة، يدير كلّ منا وجهه عن الآخر، ويتشاغل بسواه: يغنّي بصوت مرتفع، يتحدث إلى الفراغ، يحدق في اللاشيء، يقفز على قدم واحدة كاللقلق، حتى تموت اللحظة، ونستقيم على طُرقنا المتنافرة بشجاعة مرة أخرى.

في لحظة، تكفّ الذكريات عن كونها معنى، وتتشيّأ كائنا حيا أزرق العينين، ذا ناب مسموم، يغرسه في وريدك كلما تكشّف، وفي عنقك كلما لاح، فتضطر للسير متدثرًا بملابس ثقيلة وعالية، صيفا وشتاء، لا تظهر منها سوى عيناك، أملا في المرور جواره مرة دون أن ينتهكك، لكن هذا لا يكن يمنعه على أي حال من أن يعصر حبة قلبك في أي لحظة يشاء.

كل الذين اقتربوا، احترقوا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أول درس من دروس الحب: مش مهم!

أحدّثكم من العام 1999، وأنا بعد في السنة الثانية من دراستي بجامعة المنصورة، شاب أخضر العود، غضّ الإهاب، خجول، لا يزال يحمل عبء تغيير العالم على كتفيه، وراغب علامة، يُصدر ألبومه الغنائي الجديد "حبيبي يا ناسي"، فيُحدث ضجة كبيرة في العالم العربي ومصر، تحديدًا بسبب أغنية "مش مهم" التي أصبحت، بين يوم وليلة، أيقونة المحبّين، وبلسم كل مجروح ومغدور بقلبه.

الأغنية كلمات محمد فضل، وألحان خالد البكري، وتوزيع طارق عاكف.

وفي فترة وجيزة، أصبح من الطبيعي، في كل مكان تذهب إليه: كافيتريا الكلية، المقاهي، المصايف، قاعات المحاضرات، الشوارع، أن تجد راغب منتصبًا أمامك كالقدر، يهمس بنبرات تتقطع لها نياط القلوب:

كنتي في حياتي كل شيء

الحلم والنور والطريق

قلتي الوداع

الحلم ضاع

وكل معنى في قلبي ضاع

حتى الألم بقى مش مهم

مش مهم

مش مهم

حتى من كانت علاقاتهم ناضجة، وقوية -إن كان هناك وجود لمثل هذه الأشياء!- أفزعتهم الأغنية، وجعلتهم يتلفّتون حول أنفسهم، ويذكّر بعضهم بعضًا بكلماتها، من حين لآخر، تخويفًا مما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن أن يحدث لو وقع بينهم الفراق لا قدر الله!

هـذه فتـرة خطـيرة، تمثـل عنـق الزجاجـة سياسيا واجتمـاعيا وإنسـانيا، حـيث الشـباب هـائم على وجهه، لا يعرف ماذا يفعل بغـده، بعـد أن طعنـه مكتـب التنسـيق فـي قلبـه وفرّق دمه بين الكلّيات، في غياب النموذج والمثل الأعلى، والتكلس السياسي، وفقدان الأمل في كل شيء!

طبعًا كانت وسيلة الاستماع الوحيدة للأغاني في هذه الفترة: شرائط الكاسيت، فلا إنترنت ولا موبايلات ولا أي وسيط آخر، مما يتمتع به شباب هذه الأيام، الأثرياء كانوا يشترون الشريط بنحـو 10 جنيـهات تقريبـا، أمـا أمثـالنا فكـانوا يـذهبون لمحلات الكاسيت، ويطلبون عمل شريط "كوكتيل" يجمعون فيه الأغاني التي أعجبتهم من جميع شرائط الموسم.

جـاءتني الأغنيـة، ضـن شـريط كوكتيـل، أهـدته لـي فتـاة كـانت تحبّنـي، والمـرة الأولـى التـي أسـتمع إليـها فيـها، كانت الواحدة صـباحًا، لا أنسـى هـذه اللحظـات، كـوب شـاي ردئ مـن إعـدادي، وساندويتش فول بيتي في رغيف ساخن، ولمسات باردة تتسلل مـن الشـيش المـوارب، بعـد أن نـام الجمـيع، واسـتفرد بـي الليـل، وأحلام المراهقة، والطموحات التي لا تنتهي، والقلب الذي يتوق للتورط في قصة حب ليس لها مثيل، وإذا براغب علامة يطعنّي في قلبي، وينهي مشواري قبل أن يبدأ:

قلبي اللي حبّك وابتدا

يرجع يآمن للزمان

ضيّعتي منه الحلم ده

أوّل ما قلبك باع وخان

مات كل شيء جوا جميل

والفجر بان في عيونه ليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفرح بات أحزان وويل

والخوف بقى زي الأمان

الكلمات كانت باهرة بالنسبة لي، ورغم مباشرتها، كاشفة وصادقة وموجعة ومميتة، تضغط على القلب حتى تكاد تُزهق روحه، وتُحيط مشاعرك بسياج من القتامة واليأس، لا تجد معه مفرًا من الانتحار!

والحالة التي وضعتني فيها، لعلي استعدتها مرارًا فيما بعد بالعنفوان نفسه والشجن نفسه، لكن مع مبررات أقوى في كل مرّة!

قضيتُ الليلة كلها تقريبًا أستمع إلى الأغنية، وأدور مع المعاني والإحالات، وفي اليوم التالي، ذهبت إلى الكلية مثقل القلب، مشتت الروح، عازفًا عن الخوض في أي حوار مع أي أحد، ولم أهدأ إلا عندما كتبت قصة رمزية ساذجة اسمها (قبل الوداع) ضاعت مع ما ضاع، ولم أعثر على أثر لها بعد ذلك، لكنها كانت تدور عن تمسك حبيبين بيدّ أحدهما الآخر، وبحثهما عن طبيب يحقق لهما ذلك جراحيا، فيما يحاول كل المحيطين بهما فصلهما، بدعاوى مختلفة كل مرة.

كانت القصة، التي انتهت بانتصار الحبيبين، والتحامهما أكثر، علاجًا نفسيًا من الأغنية، ومحاولة بناء حائط صواريخ ضد قذائف اليأس التي كانت تنهال عليّ من كل جانب!

وحتى الذين لم يكونوا يحبّون وقتها، ولم تخفق قلوبهم بعد أمام عصا الساحر الذي لا يرّدُ قضاؤه، كانت مثل هذه الأغاني تجرح سلامهم النفسي، وتُوقفهم أمام أسئلة وجودية عميقة تطرحها العلاقات عموما، وتدفعهم لحواف الاختيارات المستحيلة!

أذكر صديقًا سجّل الأغنية لفتاته، أكثر من مرّة، على الشريط ذي الوجهين، فكانت كلما انتهت، دوّت من جديد، ولم يضع معها أي أغنية أخرى، كان يريد أن يقول لها لا تفكّري في الفراق، وإلا سيكون هذا مصيرنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للأسف، تفرّق الحبيبان بعدها بشهور قليلة، وانكسرت قلوب محبة للحياة، وانطوت على أحلام قُدّر لها أن تموت وحيدة، منبوذة، إذ إن الظروف المادية كانت وحشًا يستبيح دماء الجميع وقتها، ربما أكثر من الوقت الحالي!

فيما بعد، صوّر راغب الأغنية، تحت قيادة المخرج أرمان غزارة، في عزّ أيام الفيديو كليب، والشغف الكبير به، ورغم عدم احترافيته قياسا بأيامنا الحالية، كان كل شيء مختلفا في هذه الأغنية، ما ضمن لها أن تظل تتردّد أعواما طويلة.

الآن ربما تبدو الكلمات على قدر من السذاجة، والأحاسيس مبالغا فيها، لكن وقتها، كانت قنبلة نووية، استطاعت أن تنفذ إلى قلب كل شاب وفتاة، وتتسلل إلى أحلامهم ومنامهم، وتتحول إلى مانفستو كبير ضد الفراق ورفض انتهاء السكك فجأة رغم الأقدام الشغوف لإكمال السير فيها.

ولعلّي ظللتُ أستمع إلى راغب علامة فترة من الزمن، بسبب هذه الأغنية، ولإحساسي، بشكل أو بآخر، أنه كان رفيقي في أيام لم تتكرر، ولم يبخل عليّ بمد بساط الحزن أمام قلبي، فتعلّم أول درس من دروس الحب: الفراق.

الزواج ليس الجنس ولا الأمومة!

لا تبدو الحياة ورديّة طول الوقت، أمام اثنين قرّرا أن ينتميا لبعضها بعضًا وقتا أطول، ويتزوّجا. بالتأكيد تمرّ لحظات من عدم اليقين عليهما، وتقف في وجهيهما مصاعب تبدو تقليدية في مصر لدرجة تثير الريبة. فإن لم يكن ما بينهما أصليًا وحقيقيًا وله أكثر من جذر، سوف تختلف معادلة الحياة بينهما كثيرا، وتتحوّل إلى مكابدة حقيقية لكل شيء!

الحب وحده لا يكفى، لأنه يتبدّل ويتغيّر ويتّخذ عديدًا من الصور مع نمو العلاقة، والجنس وحدة لا يكفى لأن فورته تنطفئ بعد زمن طال أو قصر، والجمال وحده لا يكفى لأن اعتياده يحوّله لشيء تقليدي لا يستحق الوقوف عنده، والذكاء وخفة الدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وباقي السمات الشخصية وحدها لا تكفى، لأنها تظهر وتحتجب، وينتابها التغيير تحت وطأة كل ما نعانى منه.

فما الذى نبحث عنه؟

نبحث عن "اليقين" بأن الطرف الآخر لديه "شيء" يستحق الاهتمام. وهى مرحلة لا تأتى بين يوم وليلة، وربما لا تأتى أبدًا. لكن إن عشتها، وتأكّدت منها إلى حد ما، فانتهزها، لأنها ضمانة لا بأس بها على الإطلاق، ربّما تمكّن الحب من رفع رأسه فوق الطوفان الآتي لا محالة، والنجاة إلى حين.

نبحث عن فهم أعمق للطرف الآخر، بعيوبه وسيئاته قبل ميزاته ومحاسنه، بمنظومة القيم والصور الذهنية والعُقد التي يعتنقها ويرزح تحت وطأتها طول الوقت، لأنه لا أحد يتغيّر بعد الزواج، أو يهذّب من طباعه، أو يعيد تشكل رؤاه ومنطلقاته التي ظل عمرا كاملا يحملها كالوشم في قلبه، ويعتقد أنها الأفضل في الدنيا. الصراحة الجارحة مطلوبة ها هنا، لأن الأمر أولا وأخيرا ليس لعبة، أو هو لعبة، لكنها خطيرة، ونتائجها لا يستهان بها.

في الغرب، يعيشون مع بعضهم بعضًا حياة كاملة، بما فيها الجنس والإنجاب وتدبير مصروف البيت، قبل أن يدرك الطرفان احتياجهما لأحدهما الآخر، ويقرّرا الزواج. وقد لا يفعلان، فيذهب كلٌ إلى حال سبيله، ويتشاركان في تحمل مسؤولية الأبناء. الزواج -مرة أخرى- ليس له علاقة بالجنس، ولا المادة، ولا حتى إشباع غريزة الأمومة. الزواج له علاقة باليقين في مساحة المشترك، بما يتعالى على رغبات الجسد وضعف البشر، ويستحق الرضوخ لمزيد من القيود من أجل الحصول عليه، بعيدًا عن الأوهام، والتصورات المسبقة، والتوقعات، والعشم، وكل النقائص ونقاط الضعف البشرية التي تخرّب حياتنا!

أظن، وبعض الظن إثم، أن الثلاثين سن مناسبة إلى حد ما كي يكون المرء قد استوعب تجربة الحياة جزئيا، وأصبح قادرًا على تحديد ما يبحث عنه في شريك الحياة، بعيدا عن الانبهارات الأولية، والمزالق الإنسانية التى تعترض طريقنا طول الوقت. 30%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمراهقة الفكرية التي تبدو قدَرًا على الرجال أكثر من النساء. بالتأكيد هناك من ينضجون قبل ذلك، أو بعد ذلك، ومَن لا ينضجون طول العمر. نتحدث عن "متوسط" لا حقائق كونية مسلّم بها، فلا يوجد في العلاقات الإنسانية أي يقينيات، ولا كتالوجات يسير عليها الضال أو الراغب أو المتطلّع.

المهم، وأنت تخوض مجاهل النفس البشرية، وتسعى لإيجاد موضع قدم لمشاعرك، التي تعتقد أنها قيّمة للغاية، في حين ربما لا تكون كذلك أبدًا، لا تتوقع الخير كله، ولا تبحث عن الكمال، وردّد مع الكاتب المسرحي علِي سالم بيقين وتبتّل: "ليس المطلوب شخصًا نشعر معه بسعادة مطلقة، لكن شخصًا نشعر معه بأقل قدر ممكن من الألم".

تطلّقوا.. تصحّوا

تقول الأسطورة إن الرجل والمرأة لا بدّ أن يكملا حياتهما معا، مهما كان مقدار تعاستهما، من أجل تربية الأولاد!

وهو ما يفسّر لك كمّ البيوت المُغلقة على جراحها، التي تتزهزه في النهار، وأمام الناس، وفي المناسبات العامة، وتئنّ ليلا، وعلى مقعد الطبيب النفسي، وفي غرف الشات المغلقة!

يفسّر لك كمّ الشباب والفتيات التائهين الذين أصبحتَ ترتطم بهم في كل مكان، الذين ينتهزون أوّل فرصة تسنح لهم، لإخراج عقدهم في علاقاتهم بالطرف الآخر، وصولا لتكرار مأساة آبائهم الذين ضحّوا بحيواتهم وسعادتهم، فكانت هذه هي مكافأتهم!

يفسّر لك لماذا أصبحنا لا نجد متعة في الحياة، ونفكر في الآخرة أكثر من الدنيا، بعد أن استحلنا إلى مجرّد آلات مفرغة من الروح، أجهزة ATM، تتحرّك بالقصور الذاتي وحده، من أجل أداء مهمة محدّدة، ينتهي دورنا بانتهائها، فلا يعود من مبرّر لوجودنا على ظهر الأرض!

مع أننا لا نملك سوى حياة واحدة فقط، وليس هناك أيّ مبرر في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدنيا، لإنفاقها "بقشيشا" من أجل الآخرين، لا الأولاد ولا غيرهم!

فالأولاد، مهما طال مكوثهم بيننا، سوف يأتي يوم، ويفردون الأجنحة ويرحلون، ولا نعود بالنسبة لهم سوى رقم هاتف، وتاريخ كشف لدى الطبيب، ورمزا للأيام الخوالي، يستحلبونه أمام أبنائهم، ليظهروا كم أنهم بارون بنا ورائعون!

وفي أحيان كثيرة، نصبح عبئا عليهم، حتى نسمع بآذاننا دعواتهم أن يخفف الله عنا، ويأخذنا إلى جواره!

جاحد أنا، وغير مقدّر لنعمة الأبوة؟

على العكس تمامًا، أنا أقول هذا لأنني أقدّر تمامًا نعمة الأبوة، وأسعى لوضعها في حيز التنفيذ.

فالأب والأم -أو أحدهما- لو افتقدا متعة العيش، كيف سينقلانها لأبنائهما -وهي أثمن ما في الوجود- وإن لم ينقلاها، فأي شيء آخر يستحق أن يحملاه إليهم؟

حدّثني -من فضلك- عن الطفل الذي ينشأ في بيت لا تنتهي فيه المشاحنات، وأب يكره طلّة أمه، وأم لا تطيق خيال أبيه، ويتبادلان شحنات الكراهية طول اليوم!

حدّثني عن أم وأب يعايران ابنهما في كل لحظة، أنهما ضحّيا بحياتهما من أجله، وطعنا طموحهما في مقتل، كي يوفّرا له حياة كريمة!

حدّثني عن تمثال الأمومة والأبوة الذي ينهار كل يوم في عيون طفل من المفترض أن يخرج للعالم بعد قليل، كي يبني تمثاله الخاص!

كيف سيصبح هذا الطفل عندما يكبر؟

أي قيم سوف يحملها بين جنبيه ويربّي عليها أبناءه؟

في المقابل، حدّثني عن أب وأم، استحالت العشرة بينهما، وسُدّت جميع أبواب التفاهم، وانقطعت بهما سُبل المودّة والرحمة، فكانا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من النضج والشجاعة بحيث اتخذا قرار الانفصال في الوقت المناسب، ضاربين عرض الحائط بالمجتمع ومشورته العرجاء، وتشاركا في تربية الطفل، أو تولّى أحدهما تربيته، كيف ستكون حاله؟

صحيح أنه سيفتقد الجو الأسري المحبّب، والاستقرار العائلي، وستكون لديه مشاكله، وربما لا تكون تربيته ناجحة بنسبة 100%، لكن مع ذلك، فرص أن يصبح إنسانًا سويًا، وفاعلا في المجتمع، أكبر من سابِقه.

الأمر يشبه من شارك في مسابقة، هناك احتمال -ولو كان ضئيلا- أن يفوز، أما في حال كونه لم يشارك أصلا، فليس من حقه أن يتوقع أي فوز!

ورغم أن الطلاق، وفقًا للثقافة الشعبية، كارثة وفاجعة ونهاية، فإنه في الواقع الفعلي على العكس تماما، قد يكون بداية جديدة فعليًا لجميع الأطراف، يقول الله في كتابه العزيز ﴿ **وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)** ﴾ .

فالله قادر على إغناء كل طرف، وتعويضه عمّا لاقاه، لأنه واسع العطايا، وحكيم بما يُصلح القلوب، ولا يُظلم لديه العبدُ مقدار أنملة.

فلا يجب أن ترتجف أيدينا وقلوبنا أمام كلمة الطلاق، إذا كان فيها حلٌ مشاكلنا، إذا كانت هي الكلمة السحرية التي ستعيد الكون سيرته الأولى في أعيننا، وتعيد إلينا البهجة والمتعة والطموح.

بالتأكيد لا بدّ من محاولة مدّ جسور التفاهم والتوافق -مرة واثنتين ومئة- وبذل أقصى طاقة لرأب الصدع، والتخلّي عن أنانيتنا قدر الإمكان، والنظر للصورة الكلّية، ووزن المكاسب والخسائر، ومحاولة إيجاد مبرر -ولو كان واهيًا- للاستمرار، والسير في طريق التحمّل حتى آخر محطاته، وتقديم مصلحة الأبناء على مصلحتنا، لكن ماذا لو لم يجدي كل هذا؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا لو استحالت العلاقة ثقبًا أسود هائلا يمتصّ كل الطاقة الإيجابية التي نشعر بها، ويحيلنا أجسادنا فارغة بلا روح؟!

ماذا لو تساوى ليلنا ونهارنا وفرحنا وحزننا وضحكنا وبكاؤنا وخوفنا وأمننا ووجودنا وعدمنا، ولم يعد أي شيء في الحياة يمكن أن يمثل فارقا بالنسبة لنا؟

هل نُكمل موتنا في صمت، أم نسعى في اتجاه نقطة ضوء ولو كانت شاحبة؟

رأيي ألا نستسلم لقيود مجتمع عقيم، لا يقدّر الفردانية، ولا يفهم إلا مصلحته، وصورته العامة، بعيدًا عن كونها مزيّفة أو مشوّهة أو غير حقيقية. ونعيش الحياة كما نحبّ، وننحاز لما نشعر أنّه يمثلنا، ولا نفكر في مائة عام مقدمًا، ولو وقف أمامنا العالم بأكمله. ونغامر، ونجرّب أوضاعا جديدة، وفُرصا أخرى، ومساحات مختلفة من الحرية واكتشاف الذات.

هناك، في الليل، عندما ينغلق النور، وتتكوّم في ركن الغرفة، تحدّق في المجهول، وتتذكّر كل الهزائم والانكسارات التي سحقتك، وأن الحياة كان يمكن أن تكون أفضل من هذا بكثير، وأن هذا لم يكن ما خططتَ له في بداية الرحلة، لن يفرق معك ساعتها أحدٌ، ولن تمتد يدٌ من العدم لتطبطب جراحاتك، وتمسح دموعك، سوى يدك أنت فقط.

فلا تبخلوا على أنفسكم بحياة "حقيقية"، واهربوا من تلك الأخرى اللعينة الباهتة والمعلّبة والبلاستيكية، التي يريدها لكم المجتمع فاقد البصيرة، كي تصبحوا مثله.

حسام الآخَر

حسام وِحِش..

لأنه استيقظ من نومه ذات يوم، فشعر بلا جدوى الحياة، وضحالة كل ما حقّق عبر مشواره الطويل، وضيّع في سبيله ساعات ثمينة من عمره لن تعود، ولم يعد يجد طعمًا لأي شيء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تـوقّف عـن الإحساس بالسعادة والأمل، فعجز عن منحهما لمن حولـه، وأصبح لا يـرى شـيئًا إذا أطلـق بصـره للبعيـد، مستشرفًا المحطّة المقبلة لمستقبله.

كسيارة ارتطمت بأقصى سرعتها بالحائط، فتهشّم محركها، ولم تعد تقوى على الحركة سنتيمترا واحدا!

حسام فتّش في أعماقه، كما يفعل كلّما واجهه أمرٌ مُلغِز، محاولا اتّباع الأسلوب العلمي الذي قرأه في الكتب، من تحديد المشكلة، وفرض الفروض، وتجربتها جميعًا، وصولا لحل نهائي.

لكنه هذه المرّة، لم يصل لشيء!

حسـام ألصـق ظهره بـالحائط علـى فراشـه، وضـم رجليـه بقـوة لصـدره، وسـرح فـي السقف. في الخلفيـة كانت تـدور موسيقى جنائزية، لا شكّ أنه استمع إليها في مرحلة ما من حياته، فأثّرت فيـه، فاختزنها عقله ساعتها، كي يعيد إنتاجها اليوم، بدا الجو ملائمًا للغايـة لتقـديم كشـف حسـاب عمـا فعلـه فـي العمر الذي انقضى.

حسنا يا عم حسام ماذا فعلت فيما مضى؟

الحقيقة أن حسام تزوّج وأنجب وأصدر كتبًا وعمل في وظائف مرموقــة، وتعــلّم الكثـير مـن الأشـياء، واكتسـب العـديد مـن الصداقات، لكنه نسي شيئا واحدا في خضم كل هذا.. أن يعيش!

كان يستيقظ من النجمة كي يذهب لعمله الأول، فيستغرق فيه تمامًا ويتوحّد به، حتى ينسى أن يأكل، أو يتّصل بزوجته ليطمئن عليها، وعندما تدقّ الساعة الخامسة، يهرول كالمجنون، فأمامه ساعة واحدة قبل بدء عمله الثاني، وعندما يصل إليه، يستغرق فيه مرة أخرى، ويتماهى معه، ربما يتذكّر أن يأكل ساندويتشا أو بسكوتة، وربما لا، فإذا دقّت الساعة الثانية عشرة مساء، هرول مـرة أخـرى، كـي يجـد مواصـلات تنقلـه لمنزلـه، وعنـدما يصـل، تستحلفه معدته أن يضع فيها أي شيء، ولو خبزًا جافًا، فيفعل على مضض، وهو مستاء من رضوخه لهذا الابتزاز، قبل أن يفتح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"اللاب توب" ليبدأ عمله الثالث، حيث يترجم شيئا، أو يكتب مقالا، أو يجهّز عمل الغد، حتى يأخذه النوم من نفسه غصبًا، فترتخي أعصابه، ويهدأ محرّكة وإن لا ينطفئ تماما، ويغلق عينيه ثلاث أو أربع ساعات، قبل أن يدّق جرس المنبه فجأة، فينتزعه انتزاعًا من نومه، ويضعه في الدائرة مرة أخرى!

عندما وُلد ابنه، ترك أمه مع أخته وأهلها لدى الدكتورة. وهرول للمنزل، على وعد بالعودة خلال ساعة، بعد انتهائه من إرسال ملف مهم للشغل، طبعا لم ينتظره ابنه، علم أنه فوّت على نفسه هذه المعجزة، فتواطأ مع الظروف كي يجعل الفوات مطلقا. وعندما ولدت ابنته كان أيضا في الشغل، وبينه وبين أمّها 160 كيلومترا، فتابع أحداث خروجها للدنيا عبر سماعة هاتف ضنينة. أول يوم لابنه في الحضانة، لم يحضره، وحفل انتقاله للسنة الثانية، فاته، أول مرة سارت فيها ابنته، لم يرها، واليوم الذي مرضت فيه بشدة، واضطرت أمها للجري بها في "أنصاص الليالي" على الدكتور، لم يكن هناك، كان في "الشغل"!

بدأ تعلّم الإنجليزية، ولم يُكمل، التحق بالجامعة المفتوحة، ولم يتمكن من دخول الامتحان، تعرّف أصدقاء كثيرين، ولم يلتق بهم مرة واحدة خارج المكتب، كتب عن فعاليات ثقافية وفنية لا حصر لها، لم يحضر أيا منها أبدا، كان دائمًا في "الشغل"!

كان يتحرّك دائمًا وفي قلبه خوفٌ من المستقبل، وانقطاع الرزق، يخشى أن يأتي عليه يوم، يمدّ فيه يده للناس، بعد أن عجز عن الوفاء بمسؤولياته. مع أن الله لم يخذله أبدًا، لكنه كان بشريًا تقليديًا للغاية، يقول إنه يثق في الله ورزقه، بلسانه فقط، دون أن يتحوّل ذلك إلى يقين راسخ في أعماقه، يمكن أن يؤسّس عليه قرارته!

منذ شعر أنه وحده في الدنيا، بلا أخٍ غني يعتمد عليه، أو قريب ضابط شرطة أو رجل أعمال، ومنذ توفي والده، الذي كان ظهره وسنده، وهو يتحرّك بحذر ورعب، يحاول توطيد علاقته بالناس جميعًا، كي يأمن شرهم، يبذل أقصى طاقة في عمله، كي لا يمكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستغناء عنه، يتعلّم كل شيء، كي لا يحتاج يوما إلى أحد!

وهكذا أمضى عمره، يجري ويجري ويجري، دون حتى أن يعرف لماذا يجري! يتفرّج على الحياة ولا يعيشها، يدفع الساعات والأيام والسنوات، وتدفعه، على غير هدى، ودون نهاية، ودون معنى، حتى تعب، فتوقّف.

حسام اكتشف أنه طول السنوات الماضية، كان يعيش حياة الآخرين، ويدفع ثمن مشاريب غيره، لم يكن يختار ما يوافق شخصيته ويلبّي رغباته، ويعبّر عن حقيقة انحيازاته في الحياة، إنما ما يجعله "يبدو" محترمًا وناجحًا في عيون الآخرين فقط، ويحتفظ له بصفات المؤدّب وابن الناس والملتزم، إذا ما جرت سيرته على أي لسان!

لم يكن له عطر مفضّل، أو طعام يحبّه دون غيره، أو ملابس يعجبه شكلُه فيها، أو حتى مشروب يفتقده فيسعى لتناوله ويبتهج بذلك، لم يرتبط بمطرب أو أغنية أو فيلم، لم يكن يختلف كثيرًا في الواقع عن الإنسان الآلي، اللهم إلا أن الآلي ربما يتغيّر برنامجه يومًا ما، في حين كان هو ببرنامج واحد فقط!

أفاق فجأة، فوجد نفسه صفر اليدين من كل متع الحياة!

وفي اللحظة التالية لم يعد يشعر بطعم شيء.

أو شعر، لكن بالجوع، لتجربة كل ما حَرَم نفسه منه!

عاد مراهقًا يتمنّى تغيير طريقة لبسه، وتسريحة شعره، وشكل علاقاته مع الناس، والتعرف على وجوه جديدة، وثقافات مغايرة.

قرّر تجربة الممنوعات، ولو مرّة، ورغب في أن يكون طرفًا في علاقات مزلزلة تحرّك مشاعره التي ماتت!

قرّر أن يتعلّم النفاق و"التعريض"، ويبدأ في تطبيقهما بشكل جاد، كي يأخذ حقّه المهدر في عمله، وبين الناس، وكي تكفّ الفرص عن الفرار من وجهه، لمجرد أنه لا يجيد أساسيات الحياة المعاصرة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرّر أن يغيّر جلده تمامًا، ويكون أي أحد آخر، إلا نفسه!

وتكلّم حسام. عندما لم يعد قادرًا على استيعاب ما يحدث له، فضفض بما يجد في نفسه لبعض الصحاب.

أحدهم مصمص شفتيه، وضرب كفًا بكف، وقال له محذّرا: هذا "بَطَر" على النعمة، آتاك الله من كل شيء سببًا، فاحمده على ذلك، واستعذ من الشيطان. أنت في مرحلة خطيرة من حياتك، والغلطة بـ"جون". لا تفسد كل ما سعيت لتحقيقه وبذلتَ من أجله كل هذه التضحيات.

وآخر قال له بلا مبالاة حقيقية: سو وات؟ كلنا كده، أهي أيام وبتعدّي، إيه الجديد اللي إنت اكتشفته يعني؟ دونت مينشن إت، كمّل حياتك عادي.

وثالث صرخ في حرقة: ده أنا، أنا ده، إنت بتتكلم عني بالظبط. والله العظيم أنا كمان بقيت كده! لكنه لم يفعل أكثر من ذلك، ولم يضع يد حسام على حل!

كان حسام وحده تمامًا في مواجهة هذا الطوفان الذي تعلو موجته يومًا بعد يوم.

أصبح يتأخّر على عمله، ويفقد تركيزه بسهولة، ويثور لأتفه الأسباب، ويعاني للعثور على فكرة مقال أو كتابة نص، تشابهت عليه الساعات، فلم يعد يميّزها، أهمل طعامه أكثر من السابق، وزاد سرحانه، حتى أصبحتْ عودته لمنزله سالمًا دون أن تدهسه سيارة، معجزة يومية، وكثيرًا ما كان يقف فجأة وهو سائر في الشارع على غير هدى، ويقرّر ألا يتحرك خطوة واحدة، إذ يشعر باختناق روحه، وصداع هائل يطحن رأسه، ورغبة ممضّة في الصراخ وتحطيم كل شيء، ثم سرعان ما يسيطر عليه مرة أخرى الشعور بعدم الجدوى! يتعلّق بقشة، فيُخرج هاتفه، ويفتش بين عشرات الأسماء المسجّلة عليه عن شخص، شخص واحد فقط، يُفضفض معه، ويبكي، فيتقبّله كما هو، ولا يحاكمه، ولا يتهمه بالجنون، أو الانحراف، أو الكفر بنعم الله عليه، فلا يجد، الجميع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لديه مشاكله، وهمومه، وتحيّزاته المسبقة، لن يستوعبك أحد، ولن يسامحك أحد على الاتصال به في هذا الوقت للحديث عن تهويمات ومشاعر غامضة لا تهم أحدًا سواك!

يُجرجر قدميه، ويتحرّك للأمام مجبرًا، ناظرًا للسماء، مفتّشًا عن ثقب ضئيل يسمح بنفاذ شعاع واحد من النور.

من شدة الألم. بدأ حسام بالفعل رحلة التغيير، وحاول أن يقترب من أغلب الأشياء التي قرّر تجربتها، كان مدفوعًا برغبة جبّارة في ألا يعود لحفرة اليأس ثانية. وأن يقاتل لآخر رمق، كما كان يفعل طول حياته. حاول جاهدًا أن يقشّر جلده ويعثر تحته على شخص آخر ملائم أكثر للمرحلة، أن يفتح رئته للهواء المغاير، ولو أحدث في حلقه ثقبًا بقلم جاف، كما رأى الأطباء في الأفلام يفعلون ذلك مع الموشك على الاختناق، كان مخلصًا في العثور على خلاص روحه، لكنه فشل.

فشل فشلا مدويًا وطاحنًا ونهائيا في الواقع، غلبته طبيعته، وتسلّط عليه جُبنه، وفاجأته نفسه -وقت الجدّ- بما لم يكن يعمل له حسابًا!

والذين تعشّم فيهم، واتكأ على أكتافهم، ورأى في عيونهم نورًا يمكن أن يكون دليله في ظلمته، خذلوه، وهو حقّهم بالتأكيد، لكن ذلك جرحه، وأعاده لنقطة الصفر التي قاتل طويلا كي لا يرى خِلقتها مرة أخرى. أعاده للهاوية التي اتسعتْ الآن أكثر من ذي قبل، وأصبحت أقرب إليه من حبل الوريد.

فشل حسام في أن يكون شخصا آخر!

وفشل في أن يعود لنفسه الأولى!

فقرّر أن يكفّ عن الكلام، وعن الكتابة، فلم يعد شيء يجدي.

لماذا لم أعد أصلي؟

اليوم حضنني ملاك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كمثل سيدنا محمد إذا كان مستوحشًا في كهفه، نافرًا من أهله وعشيرته. ففاجأه جبريل، وحضنه، لينقله من الظلمات إلى النور.

انقطعتُ عن الصلاة شهورا.

لم أعد أشعر بشوق لها، أو أفهمها، أو أعرف لماذا أفعلها إلا لأني ورثتها من ضمن ما ورثت!

كنت أؤدّيها دونما إحساس، ليس حبًا وشوقًا. إنما خوفا من وعيد الله، وأحاديث النبي التي كانت تجرّدني من إسلامي.

وتوقّفت عندما لم أعد أخاف.

عندما استوث الجنة والنار في ناظري. فلم أعد أعرف فارقا بينهما.

واليوم خِفتُ.

شعرتُ فجأة أني أحتاج الله.

ضاقت عليّ نفسي بما رحبتْ. وانقطع رجائي في الدنيا.

غاب نَفَسي في صدري ودوّت دقات قلبي كطبول إفريقية ترتفع على غير هدى.

لم أكن أعاني نقصًا في المال، وصحّتي جيّدة للغاية، وأحبابي بخير، والدنيا تفرش لي بساط نعمتها.

لم أكن أحتاج الله ليرفع عني ضيقًا، أو يلبّي لي طلبًا من طلبات الدنيا كالعادة.

كنت أحتاج الله الطبيب، الذي يداوي جرحًا غير مرئي، لا يراه سواه، ولا يشعر به غيره، ولا يدري علّته إلاه.

توضّأت، فأسبغت الوضوء، كما لم أفعل.

كنت أرى أمام عيني مشهدًا واحدا فقط يلف ويدور ويتكرر كأبد. يرتسم مرة على مرآة الحمام، ومرة في قطرات المياه التي تجري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنما لن تتوقف ليومٍ ألقاه: شرابين طينية طويلة عجفاء ميتة، مليئة بحفر قبيحة. تجري فيها مادة منيرة مشرقة، ربما تكون ماء، وربما تكون خمرًا، وربما تكون دم فاجر لم يترك موبقة إلا اقترفها!

كنتُ أُغرق في الماء كمجنون، يفرّ من قميص العباسية. أريد الانتهاء.. الانتهاء.. الانتهاء..

ثم رأيت رأس الجمل التي رآها أبو جهل يوم أكل حق الأعرابي، فذهب لرسول الله يستصرخه، فطمأنه، وقال له اذهب لأبي جهل واطلب منه مالك، وسوف يعطيه لك صاغرا، وذهب الأعرابي، ودون كلمة أعطاه أبو جهل ماله، بعد أن رأى رأس جمل توشك أن تلتهمه لو لم يفعل!

رأيت رأس الجمل.

فأنهيت الوضوء أسرع من البرق!

لم أكن أنوي الصلاة.

توضأت دون نيّة الصلاة، دون أي إحساس.

كنت فقط أريد أن أفعلها.

بدأتْ المرئيات تغيب عن عيني فجأة، لم أعد أسمع صوت زوجتي الذي اشتبك بأصوات بعيدة لزملاء رحلوا في ريعان الشباب. مصطفى وملك يتقافزان حولي، ولا أراهما، أمي تدعوني للطعام، فتعرض الكاميرا في رأسي مشهدا لها وهي تبتعد تماما حتى تغيب عن الكادر، وتصبح نقطة بيضاء في فضاء سرمدي يتقدم مني ببطء، ليبتلعني أنا الآخر فألحق بها.

لقد تركوني وحدي جميعا، كيوم خلقتُ وحدي، ويوم أموتُ وحدي، ويوم أبعثُ وحدي.

لذتُ بغرفتي.

أغلقتُ الباب علي بالمفتاح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انهرتُ أرضًا فجأة وأنا أردّد في هستيريا: يا رب.. يا رب.. يا رب.

لم أجد كلمات أخرى على لساني.

ضاعت مأثورات الصلاة، التي عكفتُ أردّدها كببغاء خمسة وثلاثين عاما، لأنها لم تكن من القلب. أبدًا لم تكن من القلب.

كانت لهم، وليست له.

للغارسين أقدامهم في وحل الدنيا، لا المتلفّع بنوره فوق عرش الأراضين السبع والسموات السبع.

قالوا لي الصلاة صلة بين العبد وربه. فلم أحسّها.

قال لي الشعراوي، الذي كنت أحبّه، إنني إذا وقفتُ بين يدي الله خمس مرات يوميا لن يصيبني عطب، كمن يذهب إلى نهر قريب من بيته فيغتسل خمس مرات، فأصبحتُ معطوبًا أغلب أيام حياتي، لا أفهم حكمة شيء، ولا أعرف لماذا خُلقت، أو ما قيمتي في كون بهذه الضخامة حتى يدين لي، ويكون في خدمتي!

أطلقتُ لحيتي، وحلقتها، لبستُ الجلابية القصيرة، وخلعتها، وبعتُ رأسي أحيانًا للشيوخ الذين أخذوا شيكا على بياض من الله، ليتحدثوا باسمه. ويُدخلوا من يريدون الجنّة، ويحرّموا ريحها على من يريدون. فكفرتُ بهم.

من أنا؟

لماذا لم أعد أجد طعمًا لأي شيء، مهما اجتهدتُ وحققتُ ووصلتُ.

لماذا لا أتوق لا لدنيا ولا لجنة، ولا أهاب نارًا وقودها الناس والحجارة؟

لماذا لا يرقّ قلبي إذ تتردد آيات الله، التي خاض الرسول وصحابته والرعيل الأول مئات المعارك كي تصلني؟!

أمِن صخر قُدَّ هذا اللعين بين جنبي؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لماذا لم أعد أشعر بتأنيب ضمير إذ أرتكب المعاصي والذنوب، وأصنع منها مجلدات، أعرف يقينا أنها ستُعرض على ملك الملوك؟!

ما هذا الفراغ الذي أكاد إذا لمستُ قلبي، أقبض عليه، وأجد له طولا وعرضا وارتفاعا؟!

لماذا خلقتني يا رب؟

هل حقًّا خيّرتني في بدء الكون، بما سألاقي وأجد، وقلت لك نعم أريد؟

أنا قلتُ فعلا لك إنني أريد هذه الحياة المرهقة؟

أين الدليل؟

أريد دليلا يا رب، ليطمئن قلبي؟ حتى إذا حاسبتني وأدخلتني جهنم لم أبالِ.

ألم يطلبها منك إبراهيم، وهو النبي؟

ألم يقل لك: أرني كيف تحيي الموتى، فلم تسخطه قردا، ولم تُحله حجرا أصم، ورددتَ عليه، عالمًا ببواطن الأمور، وخبيرا بالطين الذي نفختَ فيه من روحك، فاستوى بشرا ضعيفا عاجزا عن فهم حكمتك الكلية: أولم تؤمن؟

فقال لك خجلا من جهله، محاذرا أن يغضبك، طامعا في كرمك، آملا في الفهم: بلى، ولكن ليطمئن قلبي؟

فطمأنَ قلبه؟

بلى ليطمئن قلبي يا رب.

بلى ليطمئن قلبي يا رب.

اليوم.. حضنني ملاك.

كمثل سيدنا محمد، إذا كان مستوحشًا في كهفه، نافرًا من أهله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعشيرته، ففاجأه جبريل، وضمّه، لينقله من الظلمات إلى النور.

فانهرتُ بين يديك.

وردّدتُ بيقين وتبتل وفهم واحتياج: يا رب.. يا رب.. يا رب.

اليوم صلّيتُ لك أرجى ركعة في حياتي.

اليوم رأيتكَ رأي العين.

واللّٰه العظيم يا رب رأيتك.

وعرفتك.

وكلما كانت قامتي ترتفع، لألتزم بشكليات الصلاة، أنهار للأرض، في مزيد من السجود، أمام النور الذي تجلّى، فأخذني مني، وجعلني منك.

وفهمت -لأول مرة- معنى قول الحلاج: "فما في الجُبّة غير اللّٰه"!

كنتَ هنا، أمامي، بجلالِك، ووجهِك الحقيقي الذي أخفوه عني سنوات وراء المحظورات والممنوعات والزفت والقطران الذي دهنوا به عقولنا، وحشوا به قلوبنا، فاحتجبتَ، واحتجبنا، ولم نعد نفهم شيئا!!

كنتُ أبكي.

وأبكي.

ثم أضحك.

واللّٰه العظيم ضحكتُ يا رب بصوت مسموع.

كطفل بين يدي ملائكة!

كامرأة عاد حبيبها من الموت فجأة، وطبع على جبينها قبلة!

كإبليس، إذ بلغ علمه فجأة أن قد عفوتَ عنه، وباتت جنتك مفتوحة أمامه، ليدخل من أي أبوابها شاء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم غابت الرؤية..

وسقطتُ مغشيا عليَّ.

أنا أحبك.

دون صلاة..

ودون افعل ولا تفعل..

دون ذقن وجلابية قصيرة..

دون شيوخ ووسطاء وسماسرة وأفّاقين..

ما زلتُ لا أفهم شيئا.

لكنني اليوم، إذ رأيتك، وإذ حضنني ملاك، وإذا أبصرت طريقي..

لم أعد أريد أن أفهم..

وسأصلّي لك..

بطريقتي، وأسلوبي، وطقوسي.

وأعلم أنك ستتقبلني كما أنا، بعيوبي وسقطاتي، وجهلي، وبشريتي، ورغبتي في الفهم والاكتشاف..

لكن..

بحق كل الأنبياء والمرسلين

بحق كتبك ورسالاتك ورحماتك التي وسعت كل شيء.

تجلَّ على عبادك.

وأظهر لهم نورك الذي أظهرتَ لي

فقد ابتعدوا..

ابتعدوا كثيرا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يعد أحدهم يراك إلا ظنًا.

أو يصلّي لك إلا إحراجا، أو عادة، أو رعبًا منك (وأنت الرحيم).

تجلّ لهم يا رب.

وأرسل ملاكك الذي أرسلت لي

ليحضنهم.

فقه المحنة

في لحظة، الدنيا بتسوّد في عينك، وكل حاجة بتقف، ويمكن -رغم قوتك واتزانك النفسي- تفكّر تنتحر، وفي لحظة تانية، الدنيا بتبيَض فجأة، وتزهزه وتظبط، وتبقى عايز عمرين على عمرك عشان تتمتع بنعيمها!

وده دليل على إن المشكلة لا في السواد ولا في البياض، إنما فيك إنت، وطريقة تلقّيك للأشياء، وترجمتها وفك شفرتها جوّاك، وعرضها على مخزونك العاطفي والمعرفي، والتنبؤ بتوابعها وتداعياتها.

عشان كده، الخطوة الأهم من إنك تترقى في شغلك، أو تجيب عربية جديدة، أو مرتبك يزيد، أو تلبس على الموضة، أو تتجوّز: إنك تصاحب نفسك، وتقعد معاها، وتاخدوا وتدوا في الكلام، لحد ما تُعيد -سلميا- اكتشاف خريطة مشاعرك، وتفهم دور كل زرار ودايرة كهربية ومِقوَد في روحك، وصولا لإرساء قواعد جديدة للتعامل.

تنفعل بالأحداث آه، بس ما تستغرقش فيها، تبكي وتضحك وتدبدب برجليك وتتأثر، آه، بس يظل فيك جزء متعالي عن الحدث، وعاقل ومتحكّم، بيأكّد لك طول الوقت، إن الحزن بينتهي، والفرح بينتهي، والحياة نفسها بتنتهي.

ويبقى دستور حياتك: حب هونًا، واكره هونًا، واضحك هونًا، وابكي هونًا، وتوقّع هونا، فالكل متغيّر ومفارق ومغاير ومستلَب،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأن حياتنا على الأرض، الفصل الأضعف على الإطلاق من كتاب الحياة.

ويمكن أن يكون كل ما يجري على المسرح، من فقد وخذلان، وتيه وضلال، وظلم وابتعاد، ولقاء وفراق، وتعلق وانكسار، وسقوط مُخجل للإنسانية في كل لحظة، غرضه الوحيد: إيصال رسالة لينا -قائمة على التجربة والبرهان، وليس الحفظ والتلقين- مفادها عدم صلاحية الأرض للحياة كما نتمنّاها، أو تحقيق الأحلام اللي فارقة معانا، أو فهم أي شيء على وجهه الصحيح، وعدم صلاحية البشر عمومًا ليكونوا محلّ توقّع أو عشم أو سند، ما يقودنا بالضرورة للبحث عما هو أكثر ثباتًا وصمودًا وديمومة وإشباعًا، عما لا تغيّره الحوادث ويغيّر هو الحوادث، فنفرد الخط على استقامته لنجد أنفسنا أمام الله.

وفي اللحظة دي بتتحوّل الحياة كلّها إلى مَعبَر وممر للحياة الأخرى، التي يتحقق فيها كل ما كنّا نتوقعه وننتظره ونبحث عنه ونحتاجه، وبالتالي تهون علينا التضحية بـ"الفالصو" من أجل الألماس، وسقاية "العلّيق" من أجل الورد، فنكون بذلك قد امتلكنا بوصلة اجتياز الدارين معا.

بتبقى الحياة الدنيا مجرّد "سنّيد" لبطل الفيلم، بيساعده ويبروزه ويسهّل عليه القيام بدوره، من غير ما ياخد منه الأضواء، أو يظهر اسمه بحجم أو ترتيب يفوق النجم على التترات.

والمِحنة في أوّلها: بتنسّلك، وتشقّيك، وتفضّيك من كل كِبر وغرور وتوقّع وعشم، وتسيبك لقمة سائغة بين براثن الألم، اللي بيبقى واصل لكل خلية ونقطة دم ونخاع في جسمك، بتوقّفك لوحدك تمامًا بلا معيّة أمام نفسك في شقّها الحيواني الفطري غير المهذب بقشرة الحضارة والمزوّد بأسلحة النفاق والادعاء والرياء، وبتنوّر لك مساحات جوّاك أول مرة تشوفها، وتحط إيدك على أغوار سحيقة عمرك ما اتصوّرت إنك تبلغها، أو إنك تمتلكها أصلا! وفي منتصفها (للحفاظ على حياتك وسلامك العقلي): بتديّك طرق وحيل لمواجهتها وإقصاء أثرها المدمر، أو تحييده وكفّه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتقليله لحده الأدنى، وفي نهايتها: بتكون كشفت لك تمامًا كنه ذاتك، وحقيقة الجبلّة المركبة في جسدك، وعلى قد ما خدت منك، بتدّيك، وإن لم تدر أو تفهم أو تمد يدك وتلمس أشياء مادية واضحة في لحظتها.

وهو ده غرضها الأبعد غورًا: الكشف، وليس تعذيبك، أو إشعارك بضآلتك، أو زنقك في وضع مستحيل.

عشان كده، الصوفية كانوا بيقولوا: "أَقم قيامتك كل ليلة"، أي حاسب نفسك كأنه يوم القيامة، ودي أكبر محنة، عشان تستمر بدأب في إزاحة التراب والصدأ والدنيا عن قلبك، لتجلوه، وتصل به ومعه وفيه لحقيقتك.

وأزيدك من الشعر بيتا، فأقول إن العالِمين ببواطن الأمور، لا يفرحون فقط بالمحنة، وإنما بيفتقدوها، ويشتاقون إليها غذا غابت أو تأخّرت، لذا قال أحدهم: لولا العثرات لشككت في الطريق!

فيما إن مشكلة الإنسان الوجودية الكبرى، إن فناء عمره ومحدوديته وضآلته، وإحساسه بالوحدة، حتى لو وسط الناس، بتخلّيه يتعلّق بالأبد والدوام، ويبحث عنه ويتفقّده (كنوع من التضاد الذي يبرز المعنى ويوضّحه) فيبحث عن علاقات دائمة، ومشاعر مستمرة، ومنح لا تغيب، وهِبات لا تذوي ولا تفنى، رغم أنه هو نفسه غير دائم!

ولما ده ما بيحصلش، بيرتجف مؤشر الفناء داخله بجنون، ويُطلق صيحاته وتحذيراته، ويفكّره بحقيقة نفسه، فيخاف أكتر، ويمد ضوافره ويخربش الحياة، ويخربش أحبابه، ويخربش نفسه، ويحاول يمسك في الأشياء بإيده وسنانه، ويستبقيها أطول فترة ممكنة، عشان يردّ على هاتف الفناء جواه، ويقول له: لأ، أنا حي، أنا مكمّل.

عشان كده، رغم إن كتير من الحاجات بتتحلّ بالوقت، ومضي الأيام، وسحبها عجلة النسيان على قلوبنا، وتضميدها، فإحنا اللي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما بنعرفش نصبر، وبنصمم كل حاجة تخلص دلوقتي حالا، وإلا فلا، فبنفضل في صراع لا ينتهي مع كل تفصيلة في حياتنا.

والحل؟

إذا طرقتَ ولم يُفتح لك، فامكث، وإذا ناديتَ ولم يُؤبه لك، فرابط، وإذا عَمِلتَ ولم يُر لك أثر، فثابر، إنما هو صبرُ يومٍ أو بعضُ يومٍ، حتى يُفتح وتِنادَى وتُرَى، فتسكُن.

الموت حيا!

عبارة الستّ اللي بتقول: "دا الصَبر عايز صَبر لوحده"، بتلخّص المأزق الوجودي اللي العاشق بيجد نفسه فيه فجأة، لما تحصل بينه وبين محبوبه حاجة، ويبقى حلّها الوحيد في الصبر، وانتظار ما تأتي به الأيام. فحتّى لو وافق نظريًا على الانتظار، ومن ورا قلبه، وبحكم إنه لا يملك حق الرفض، السؤال الملحّ بيبقى: هيعمل ده ازاي؟!

منين هيجيب الطاقة اللي تخلّيه يراقب تغيّر الحال، وزوال ما تعوّد عليه، وتحوّل النعمة لنقمة، وهو مكتوف اليدين، ومش قادر يعمل أي حاجة؟!

وازاي هيقدر يزقّ الثواني والدقايق والساعات والأيام، عشان يوصل للّحظة المرتقبة، سواء هيصدر فيها حكم بالإعدام أو البراءة؟!

وبأي وسيلة يقدر يوقّف نبضات قلبه إذا صاحت، وهففان روحه إذا اشتعل، وتوق نفسه لسابق العهد مع المحبوب إذا تأجّج؟!

ازاي هيقدر يحارب سيل الذكريات والصور والعبارات والمواقف اللي هتتسلّط على حَبّة قلبه -مثل لهب صهر المعادن!- وتفضل طول الوقت ترسم له مشهدين، واحد ألوان وهم بيتكلموا لآخر مرة مع بعض زي عادتهم، وبيضحكوا، وينكّتوا، دون معرفة ما تخبئه اللحظات التالية، والتاني أبيض وأسود، مش باين فيه غير ضهر كل واحد فيهم وهو بيمشي في اتجاه معاكس للتاني!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهيعمل إيه في المستقبل اللي رسمه وخططه، وخلّص كل تنتوفة فيه، ونزل بورق الحائط، ومش فاضل فيه بس غير قصّ الشريط؟!

فيما إنه واقعيًا، كل الطرق لممارسة فضيلة الصبر، بتُثبت فشلها الفادح في النهاية، أو بتنجح أول يومين تلاتة، بفعل حلاوة الروح، وبعدين تفرقع في وشّ صاحبها، أو تصيبه بحالة عكسية من البلادة، فتغيّر جيناته للأبد، فيصعب عليه استعادة نفسه ثانية، حتى لو تغيّر الحال لعين مطلوبه!

والعاشق، في محاولاته للصمود، غالبًا بيدخل بكامله فقّاعة الذكريات، ويجتر ما مضى، عشان يبني منه حائط صد، يحتمي وراه في الأيام السودة، ويركّز على لحظات الودّ والصفاء والوعد، كأنه بيشحن روحه، وبيفضل يردّد لنفسه كل ثانية إن كل شيء هيبقى تمام، وإن رصيده لدى محبوبه يسمح، وإن الموضوع مش هيطوّل أكيد.

وساعات بيلجأ لعلاقات عابرة بديلة ومؤقتة وخطرة، لخلق حالة شبيهة بما كان فيه، وتعويض الفاقد في المشاعر من ناحية، وللاطمئنان على نفسه -حال أتت الرياح بما لا تشتهي السفن- من ناحية تانية. وده بيبقى خيار صعب، ويمكن تكون أضراره أكتر من منافعه، لكن الاضطراب وعدم التصديق اللي مسيطر عليه، بيخليه مش مركز ولا في كامل وعيه، وبيخلق ثغرة، ممكن تُستَغل بسهولة.

ومع إن كل لحظة بتعدّي، بتخصم من رصيد ثقة العاشق في نفسه، وفي محبوبه، وبتقرّبه أكتر من اللبس في الحيط، فهو بيظل لآخر لحظة -وما دام لم تصدر شهادة وفاة العلاقة من الطرف الآخر رسميًا- يُمنّي نفسه بالخروج من النفق المظلم!

ولعله ما بيصدقش أبدا انتهاء العلاقة، حتى لو انتهت فعليًا!

وبعضهم بيتجاوز الأزمة كلها، ويتسامى، ويحلّق خارج الحدث، ويبدأ يحضّر الكلام اللي هيقوله، والحاجات اللي هيعملها بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصُلح!

الصبر محنة كبيرة قوي، مش أي حد يقدر يجتازها، ويعدّي منها بلا خسائر فادحة، حتى مُصارِعي الأحزان وكبار المجالدين. وفي الغالب لازم تضرب أي حاجة في مقتل، وهي معدّية!

وبعدها.. مش ممكن الإنسان يرجع زي الأول أبدًا، مهما حاول.

فيه لمبة بتتطّفي، ووردة بتتدبل، ونجمة بتضلّ مسارها في السما، وقلب بيموت حي، ودمعة -في مكان ما في الكون- بتتجمّد للأبد!

فما تحوجوش حبايبكم لغيركم، افتحوا قلوبكم لأخطائهم، وطبطبوا على ضعفهم البشري، ما تستجيبوش لغضب اللحظة، وتسكروا بقوة امتلاك القرار، وتنسوا تاريخكم المشترك -بحلوه ومُرّه- وكفاحكم ضد كل شيء عشان تبقوا مع بعض، ما تستسهلوش الوداع، وتحرقوا -بكلمة- الماضي والحاضر والمستقبل.

ساعات الهزيمة لحد بتحبّه، بتبقى أجمل من ألف نصر، وباب لعلاقة مختلفة، اتصنعتْ على مَهَل في جوف المحنة، فانجلى ذهبها ولمع جوهرها، ولم يعد إلا أن تمنحك نورًا على نور.

التفاحة!

كل واحد من اللي حواليك بيشوفك بطريقته، وبالشكل اللي يُمكّنه من تحمّلك، والتعامل مع عيوبك -وفي الوقت نفسه الاستفادة منك (ماديًا، إنسانيًا، اجتماعيًا، إلخ)- وعبر صفات مشابهة فيكم، بتلعب دور الأرض المشتركة، وده اللي بيخلّي فيه تباين مُرعب في صورتك من شخص لشخص طول الوقت، حسب الزاوية اللي باصص لك منها، والدور اللي منتظر منك تقوم بيه.

والخلاف بيقع، لمّا حد يغيّر موقعه في خريطة العلاقة، ويلعب دور مش بتاعه، أو يقصّر في دور المفروض يقوم بيه، أو لمّا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعطيّات اللي بيصدّرها عن نفسه تبقى خاطئة تمامًا -جهلا أو خداعًا- فالآخرين يسكّنوه في مرتبة مش مرتبته، ودور اجتماعي ما يناسبوش، أو لمّا تقرّبوا من بعض زيادة عن اللزوم، فرتوش اللوحة تبان، بمعزل عن سياقها العام، فتبدو قبيحة في حد ذاتها، وإن كان لا يمكن الاستغناء عنها في المطلق، أو لما بنبقى خياليين بزيادة، ونحاول ندوّر على حد تفصيل، منزوع العيوب، وخالى من النواقص البشرية!

والكمال الإنساني.. حلم وعتبة بنحطّها هدف صحيح، بس عشان ناخد حاجة نضيفة في نهاية الرحلة، مش عشان فعلا نطولها، أو نمد إيدينا نلسمها،و نل زي ما في الكلّية يقولوا لك حُط عينك على الامتياز، عشان تجيب جيد جدا أو جيد، لكن لو فكّرت في المقبول، فهتلبس في الحيطة بإذن واحد أحد!

وحياتنا عمومًا قايمة على النقص، وتغيّر الحال، والجمع بين الأضداد: الصحة يعقبها مرض، واللقا في ديله فراق، والحياة نهايتها الموت، وده بدوره بينسحب على البشر، فتجد في الواحد الصفة ونقيضها، الشجاعة والجبن، الكرم والبخل، الطهر والعُهر، الزهد والنَهَم... واللي بيحدد الوش اللي الشريط يشتغل عليه النهاردة، سياق المنفعة العائد على الشخص، وموقعه من منظومة الدين والقيم والأخلاق.

يعني مفيش حد خيّر تمامًا ولا شرير تمامًا، صالح بشكل مطلق أو طالح بشكل مطلق، اللهم إلا في التصوّر الساذج لسينما الأبيض والأسود، اللي كانت بتطلّع الكفار طول الوقت لابسين أسود ومكشّرين وريحتهم وحشة، عكس المؤمنين اللي وشّهم فشر اللمبة النيون الـ٣٠٠ واط!

وبشكل أو بآخر، النقص ده هو اللي بيدّي للحاجات طعم ومعنى!

تخيّل إن معاك حتة جاتوه ما بتخلصش، هتملّ طعمها بعد شوية، غصب عنك -لأن أجهزتك غير معدّة لإدراك الأبد واللانهاية- وممكن تموّت نفسك عشان ما تاخش منها قطمة تانية، ولو مقضى حياتك كلها مرض بس، هتكره كل شيء وتقنط، ولو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صحة بس، هتفتري على الخلق، وتبعد عن ربنا، لكن انتهاء قطعة الجاتوه، بيدينا الفرصة لاستحلاب طعمها في الفم، واستعادة اللحظات السعيدة اللي كلناها فيها، ووقوعنا بين براثن المرض، بيُلجئنا لربنا، ويخلّينا نُعيد تقييم البشر والمواقف والحياة بأكملها، وربما تكون نقطة تحوّل نهائية في مسيرتنا.

والإنسان مخلوق معقّد، بتتحكم فيه عوامل ظاهرة معروفة، يمكن رصدها وقياسها وتطويعها للتعديل بأدوات معيّنة، وأخرى خفيّة باطنة مكنونة متغيّرة، تختلف قوانينها من شخص لآخر، ومن مرحلة عمرية لأخرى، ومن زمن للتاني، عشان كده ملوش كتالوج ولا مانيوال، مجرد ما تقراه تعرف تتعامل معاه، ملوش سقف توقعات وخريطة سلوك يمكن تعميمها على جميع أفراد النوع، ودايما هتتفاجئ بردود فعله!

فلو إنت عايز تفضل مصدوم طول الوقت، ومكتئب، ومش مرتاح في تعاملك مع البني أدمين، ومتفاجئ من اللي بيعملوه، وحاسس إنك جيت كوكب غلط، خلّيك خارج سياق التاريخ والعِلم والتجربة، وافضل حط لهم خطوط مستقيمة يمشوا عليها، واعمل جداول بتوقعاتك العظيمة -اللي غالبا بتعملها على مقاسك مش على مقاسهم!-وانتظر ما لا يأتي، لحد ما تفقد إيمانك بيهم تمامًا، وتبقى خسرتهم للأبد، وخسرت نفسك.. أو افهّم معنى كونهم بشر بائسين فعلا، وغلابة على حق، فارقوا الجنة والرغد والتمييز الإلهي والاصطفاء وملك لا يفنى.. بسبب تفاحة!

القرار قرارك.

كل معاركك

مش لازم تكسب كل معاركك دلوقتي حالا، ممكن تكتفي بالمشي خطوات معدودة في سبيل الفوز، وتصبر، وتقارب، وتخلّي عينك مفتوحة ومخك شغّال، عشان تقدر تتعامل مع المتغيّرات، فور حدوثها.

90% من أزماتنا بيجي من تسرّعنا، ورغبتنا المحمومة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التكويش على كل حاجة، بمجرد ما نعوزها، وبننسى إننا في الدنيا: دار البلاء والابتلاء، اللي لازم أغلب احتياجاتنا فيها تتعرقل، وتتأخر، وتقف، وتضيع.

إحنا حتى ساعات كتير ما بنبقاش متأكدين من اللي إحنا عايزينه، ولا أهميته لمشوارنا، إحنا بس عايزينه، وبعدين لما نحصل عليه، نبقى نشوف هنعمل بيه إيه، ولو ما طلعش هو، مش مشكلة، نرميه، ونجري ورا شيء تاني ممكن برضه في الآخر يطلع مش هو ده!

كمان وإنت بتتحرَّك ناحية الأهداف الكبرى، لازم يكون عندك أهداف مرحلية صغيرة، تحس بالإشباع لما تحققها، وتشعر برغبة أكبر في إكمال الطريق للي بعدها. ما تعيشّ في توب حلم واحد مفيش غيره، لو ضاع تضيع. خلّي أحلامك بعرض السماء والأرض، ولو واحد ندهته النداهة، اعمل إحلال وإبدال فورا.

ومع ذلك، لازم تبقى واقعي، عشان ما تلبسش في الحيط، يعني ما تحلمش تبقى طيار وإنت نظرك شيش بيش، وما تحلمش تبقى مدرس لغة يابانية، وإنت ما بتعرفش تتكلم عربي أصلا عشان تتكلم ياباني، اتساع الحلم لا يعني عدم واقعيته، أو جنوحه لخيال لن يتحقق. اتساع الحلم يعني القدرة على تحديد أهميته بالنسبة لك، واستعدادك لبذل المجهود عشان توصل له، وقدرتك على تحقيق ده في الآخر.

والحياة، في النهاية، أبسط كتير مما نتخيّل، بس إحنا اللي مامعاناش الكتالوج، ولا طريقة التشغيل، عشان كده بنغلط كتير وندوس على زراير مش صح، وأحيانا، بنضغط كل الزراير على أمل إن واحد فيها يظبط !

وبالتأكيد مفيش مشكلة من الغلط، ولا التجربة، ولا الوقوع. بالعكس، اللي ما بيعملش كده، ما بيوصلش، أو بيوصل لحلم مش بتاعه، أو بيوصل وبعدين ما يحسّش بالإنجاز، فما تخافش، وما تعتبرتش أي حاجة نهاية، آدم بعد ما أكل من الشجرة المحرّمة، ربنا سامحه، ويونس بعد ما الحوت بلعه، رماه على الشط،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وموسى بعد ما قتل المصري بقى نبي، فاللي تعتبره نهاية، ممكن يكون هو البداية أصلا!

في لحظة، هتحس بضعف مريع، وتلاقي كل السبل مقفولة، وكل مصادر الطاقة وشحن الروح معطّلة أو فاضية أو بعيدة، وكل الناس بتفتي وبتقول لك إنت غلط، وازاي تعمل كده، فتبقى عايز تلم الليلة، وترجع لقواعدك سالما، ويا دار ما دخلك شر. وده بيبقى التحدي الأكبر في حياتك، والمحكّ الرئيسي لمدى تمسكك باللي بتعمله، واقتناعك بجدواه، لو وقفت ولمّيت الكراريس، وقلت مش لاعب، تبقى عيّل صغيّر لسّه مش قد حلمه، ولو وقفت وصمدت، واتشقلبت وجرجرت نفسك عشان تصمد دقيقة ولا دقيقتين رغم غياب الأوكسجين، المدد هيجي، وهيبقى دائم المرة دي.

إنت مش لوحدك، فيه كون وربّ وأسباب وظروف، بتتآمر عشان تحقّق لك ما تتمنّى، بشرط تتأكد إنك عايزه فعلا، ومتمسّك بيه فعلا، وبتعمل اللي عليك عشان توصل له، ومستعد تدفع ضريبته بشجاعة في النهاية.

هاه.. ضريبته. واخد بالك؟ أصل مفيش حاجة مجانية أو بتيجي ع الساهل.

غير كده. يبقى تضييع وقت وعمر وحياة.. فيما لا يفيد!

مع بعض

بنبقى أقويا جدًا وإحنا بناخد قرار الفراق، وقطع الحبال، وتصفية دمّ المشاعر، وسحق رئة الإحساس، وتحويل مسار حياتنا للأبد، وبنتخيّل إننا صح تمامًا، وإننا هنتجاوز اللحظة في يوم من الأيام، والدنيا هتدّينا تاني وتالت وعاشر، زي ما ادّتنا أولاني، وإن ده الحلّ الوحيد -رغم إننا يمكن نكون ما دوّرناش على غيره!- إحنا جامدين قوي، ومسيطرين، ومالكين المستقبل، وشايفين اللي ماحدّش من الأغبيا اللي حوالينا شايفه، إحنا مختلفين عن غيرنا قطعيًا، واللي بيحصل لهم ده، مش ممكن يحصل لنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبدًا..إحنا... وإحنا... وإحنا...

ومـا بنكتشـفش قيمـة اللـي ضـاع منّنـا، إلا لمـا نشـتاق لـه، ومـا نطـولوش، ونحتـاج نسـمع صـوته ولـو ثواني، ومـا نملكوش، لمّا نواجـه اختيـار صعب، ونحتـاج حد يقف في ضهرنا نركن عليه وإحنا مطمّنين، ونلاقي نفسنا مننا للحيط!

فنبدأ نتجنّب الأماكن/الأشخاص/المناسبات اللي كانت بتجمعنا، ونحاول نهرب برّه الزمن والحدّوتة، وبعد ما كان براح العالم ملك إيـدينا، بنحـدّد إقـامتنا بإرادتنا في منطقة رماديـة من التـاريخ، وعنينـا فـي وسـط راسـنا لنطلّ برّاها في لحظة من غير قصد، فيتهدم أماننا النفسي الهش المزيف!

وتعـدّي السـنين، ونـدخل تجـارب ورا تجـارب، بعضـها صـدفة، وبعضـها متعمَّد ومقصـود، وبـلاد تشـيلنا وبـلاد تحطّنا، ونحقق طموحات كتير، وأحلام أكتر، لكن ولا مرّة بنلاقي الإشباع اللي كنا بنلاقيه معاه، والدفا -آه من الدفا!- في حضن إيديه!

فيــه حاجـة جـذرية بتكـون اتغـيّرت للأبـد فـي الـDNA بتـاع أحاسيسنا، فبقينا بنشعر بنص فرحة/نص دهشة/نص رغبة/نص إرادة، ما بتكفيش في النهاية إنها توصلنا لأي حاجة، زي العربية اللي موتورها بايظ، وما بيعملش غير إنه يطلّع صوت عالي كل ما تدوّره، فتتخيل إنها هتقوم، لكن فجأة الصوت يتخرس، وتفضل العربية في مكانها للأبد!

ومهما استكبرنا نعترف إننا كنا غلط، سنة ولّا اتنين ولّا عشرة، في النهاية بنقف قدّام المراية، وندوّر على الإنسان القديم اللي عرفناه وإحنـا معـاه، علـى الضـحكة اللـي تـهزّ القلـب حقـيقي، والـروح الخفيفة اللي كانت بتقابل روحه في السما. ندوّر "علينا" وإحنا "إحنا".. وما نلاقيش!

وساعتها بنستهيف أي حاجة حققناها وإحنا مش بعض، بنبصّ بـاحتقار لكـل مـا اعتبرنـاه "إنجـازات"، ضـحّينا عشـانها بـالغالي والرخيص، ونحس إننا خسرنا الروح والمادة مع بعض!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما تستهونوش بالوداع، وكسرة النفس. خلّوه الأخير في لِستة الخيارات اللي فيها ألف بند، غمّضوا عنيكو لما يلوح في الأفق، وادّوله ضهركم لو فضل يتنطّط قدامكم وصمّم يتكلم معاكم. حطوا إيديكم في ودانكم وغنّوا أغنية بتحبوها بصوت عالي، لما يرفع صوته الأجش ويقول لكم "أنا هو.. أنا موجود.. أنا حلّ كل مشاكلكم"، مِدّوا الخطاوي لقدّام بسرعة، اتشبثوا بإيدين بعض، اتعشقوا في أحضان بعض، واستحملوا ظروف بعض، وتقلباتكم وجنونكم، بطّلوا عناد ومعيلة وحجج فارغة وتسويف، اكبروا، وخطّطوا لبكره بشكل واقعي وإنتو مع بعض.

لازم تبقوا مع بعض.

كل «أمين» خذلته «ورد»!

ينظر أمين إلى ورد بتركيز أكثر من كل المرّات التي رآها فيها خلال حياته، فهو الآن لا يراها كامرأة، لكن كحلم يوشك على الانتهاء.

يحفظ تفاصيلها، لأنه سيستدعيها كثيرًا فيما بعد، في مواجهة وحدته القارسة التي لن تنتهي منذ اللحظة.

يمدّ إليها يده، ليُنهضها، فهو فوق، وهي تحت، وكما المرة السابقة، تستجيب، وترتفع بالجسم لا بالروح، وتقف في مواجهته، لكن في درجة أقل منه.

يمرّر أصابعه على ملامحها، التي منحته السعادة والألم، المتعة والعذاب، الوجود والعدم، دافع الحياة ودافع إنهائها! يستخدم أكثر من حاسّة في تخزينها بداخله، لعله كلّما أدركها أكثر، واستوعبها أكثر، اكتشف شيئا غامضًا فيها يقنعه أنه واهم، أو مجنون -هو يفضّل الجنون على الحقيقة الآن!- وأن حياة روحه ليست على وشك الانتهاء!

يريد أن يلتمس لها العذر، ويكذّب حتى نفسه، لكن ملامحها المُقرّة لا تدع له فرصة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحتضنها، وهو في الواقع يحتضن نفسه في صورتها، ويُطبطب على روحه، يواسي لحظته التالية، قبل أن يأخذ قراره النهائي، ويُغلق على نفسه أي باب للرجعة، يقيّد يديها، فيما هو في الواقع يقيّد أمله في براءتها، ويمنع ظنونه من الحركة، ويدفع بكل شيء للحافة!

وكسيزيف يحمل صخرة عذابه، ومسيح يحمل صليبه، حمل أمين ورد، وبِذرتها/ابنها راغبًا في اقتلاع كل شيء من جذوره، قرار نهائي بالفناء المطلق، والغياب، متجهًا إلى حيث يصعد الجبل، ويُصلب قلبه للأبد.

تتعالى الموسيقى كالنواح، وتشتبك مع صوت ورد وهي تسأله عمّا به، متّهمة إياه بالجنون، مردّدة اسمه بين الحين والآخر، بطبقات صوتية مختلفة، تحاول إيقاظه، ودفع القدر، متعجبة من أن أسطورتها الذاتية توشك على الانتهاء، وشمسها تغيب تدريجيا في قلب الرجل الذي تصوّرت أنه ملكها للأبد!

يمضي أمين، غير ملتفت إلا لرغبته في مواجهة أبشع كوابيسه، والوصول لذروة عذابه، يضرب باب مراد بقدمه، بديلا عن ضرب مراد نفسه، فهو من دنّس المعبد، وكتب أول بيت في قصيدة الكفر بالنعمة، ثم يلقي حِمْلَه مرة واحدة بلا تردد، لقد أورثته الخيانة قسوة في القلب ليست من طبعه، لكنه يحتاجها الآن، كي يتمكن من فعل ما لم يتصوّر قدرته على فعله أبدا!

تسقط ورد، من يد أمين ومن قلبه ومن نظره، وتصبح قطعة ديكور في مملكة مراد العاجز عن التفوّه بكلمة. ينظر أمين للطفل الذي قُدّر له أن يكون ثمرة الخيانة، وهو في الوقت نفسه وسيلة خلاص أمين، دون أن يدري، فهو رمز للفُجر والنقاء في آنٍ، يودّعه بلطف يليق بطهارته، وطهارة أمين، ثم يرفعه إلى أعلى، إشارة إلى أمله في أن يستمر نقيًا ولا يتورط في مستنقع آبائه، أو يجرّونه إلى أسفل معهم.

يطلق أمين رصاصته الأخيرة بصوت أجش من خارج هذا العالم:

(الحاجات دي تخصك ما تخصنيش).

53%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم ينسحب، قويًا ضعيفًا صامدًا مهزوزًا نبيلا مهانًا فائزًا مهزومًا رجلا طفلا... وفي كلٍ.. وحيدًا حدّ الذبح.

ويتركنا نُعيد المشهد مرارًا وتكرارًا، نستحلب مرارته، ونمضغ لعنته، ونغوص في سوداويته، ونحن نصفّق، نصفّق، نصفّق، ودموعنا تغادر مرافئها في عيوننا، على كل أمين خذلته ورد!

(مشهد من مسلسل جراند أوتيل، الذي عرض في رمضان 2016)

عُشّاق نالوا بالموت ما حرمتهم منه الحياة

"الحبّ والموت.. وجهان لعملة واحدة".

عبارة سمعتُها صغيرًا، بين يدي أبي، وهو يقرأ عليّ من أخبار الشعراء المحبّين، ويروي لي قصصهم ومآثرهم، التي اختلطتْ فيها لذّةُ الوصال بفجيعة الغياب، ورحمةُ التمنّي بنقمة الخذلان، حتى بلغت الأرواح الحلقوم، وجاوزته أحيانا، وأحيانا أخرى، ارتدّت لأصحابها، لكن على غير صورتها الأصلية، بعد أن نزع منها الفراق بشريّتَها، ولم يترك لها سوى نِتَف، لا تغني عن صاحبها ولا تُسمن من جوع!

ولعلّه ليس مثل الحب، يمكن أن يرفع أو يخفض، يلوّن الحياة بقوس قزح، أو يحيلها جيفة تعافها الأنفس، وتنفر منها القلوب، فمن ظفر بوصل محبوبه، واتصلت بينهما الأسباب، كان في عين اللّه، ومن قُدِر عليه حبّه، وضل سعيُه وهو يظن أنه يُحسن صنعًا، خرّ من السماء كأنما تخطّفه الطير!

وعلى مدّ الخط، يروي لنا التاريخ قصص مُحبّين، مسّتهم الشعلة المقدسة، فأشرقوا بنور ربّهم، ومدّوا الخطو، متعجلين جني الثمار، ودخول جنة الأرض، لكن جنتهم لم تكن هنا، فخذلتهم الظروف، وأحيانا محبوباتهم، وأحيانا أنفسهم، فانقلبت عملةُ حبّهم على وجهها الآخر، فلم يجدوا إلا الموتَ فاغرا فاه، قبل أن ينشب مخالبه في سويدائهم!

وإذا كان في زمننا نسمي كل علاقة حبا، ولا نطيل في ذلك، فقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان العرب مختلفين في ذلك، حيث كان للحب لديهم مراتب ومنازل، أوّلها الهوى: وهو الميل إلى المحبوب، ثم الشوق: وهو نزوع المحب إلى لقاء محبوبه، يليه الحنين: وهو شوق ممزوج برقة، ثم يأتي الحب: وهو أول الألفة، ثم الشغف: وهو تمني رؤية المحبوب دائمًا، ثم الغرام: وهو التعلّق بالمحبوب تعلّقا لا يستطيع المُحبّ الخلاصَ منه، قبل أن يقع العشق: وهو الإفراط في الحب، ويغلب أن يلتقي فيه المحب والمحبوب، ثم التتيم: وهو استعباد المحبوب للمحب، ثم الهيام: وهو شدة الحب، الذي يكاد يسلب المحب عقله، وصولا للجنون: وهو استلاب الحب لعقل المحب.

ولعلّ أبطال قصصنا قد مرّوا جميعا بهذه المراحل، وربما تجاوزوها، إلى حيث الله أعلم بهم، وبحالهم!

المرقّش الأكبر وصاحبته أسماء.. خيانة الأهل ووفاء الأعداء

هو عمرو أو عوف بن سعد بن مالك، المنتهي نسبه إلى بكر بن وائل، وسمي المرقش لبيت شعر قال فيه (والدار وحش والرسوم كما.. رقّش في ظهر الأديم قلم). عاش في العصر الجاهلي، وجمع بين الفروسية والشعر، وضُرب به المثل في قوة الحب وعفته.

نشأ بصحبة أسماء، ابنة عمه، في جو البادية، بين رعي وزرع وعواطف تتسلل إلى قلبيهما، مبهمة في البداية، ثم واضحة جلية، ثم جارفة، تشدّ كلا منهما إلى الآخر وتدفعه دفعًا نحوه.

ولما بلغ مبلغ الرجال، طلب المرقش يد أسماء من عمّه، لكن الرجل راوغه، ولم يجبه إلى طلبه إلا بشرط أن يصبح له شأن بين الرجال وثروة، ووعده أن يحفظ له ابنته حتى يحقق ما طلبه منه.

ورغم ضيق المرقّش بطلب عمه، لأنه يحتاج وقتًا، وهو لا يكاد يصبر على فراق فتاته، بدأ التحرك فورا وقصد بعض ملوك اليمن، يمدحهم، لينال منهم العطايا والشرف.

وفي غيابه، أصابت شدّة عمه، وضاقت عليه الأرض، حتى مكث في داره يكاد يموت جوعا هو وأهل بيته، رغم مكانته وحظوته،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وظهر رجل من بني مراد، علم حاله، وكان قد لمح أسماء فتعلّق بها قلبه، فعرض عليه مئة ناقة مهرا لها.

ويتنكّر عوف لابن أخيه، وينسى وعده له، ولا يتذكر إلا ما يمرّ به، فيوافق على الرجل، ويزفّ إليه أسماء وهي كارهة.

وكان المرقش في دنيا أخرى، يحارب ويجاهد كي يصنع من نفسه الرجل الذي تستحقه محبوبته، ويملأ عيني أبيها، فيقبل به، ويحقق له حلم حياته.

وبعد شبعه، يدرك أبو أسماء ما فعل، ويخشى ابن أخيه الذي سيعود بالمال والمجد ذات يوم، ويطالبه بالوفاء له بعهده، ولعلّه إن أدرك أنه فَقَد كل ما كافح من أجله، جنّ، وتصرف على غير توقع، فيتمادى الرجل في إجرامه، ويتفتق ذهنه عن فكرة شيطانية، حيث يعمد إلى كبش، فيذبحه، ويأكله، ويدفن عظامه في قبر، ويتفق مع عشيرته على الادّعاء أن هذا قبر أسماء، التي أصيبت بمرض أودى بحياتها!

ويعود المرقش في ماله وأبّهته، لينال الجائزة التي ستبرر كل ما عانى منه، فإذا به يُصدم بالخبر المهول، فينهار تمامًا، ويقول لهم من بين دموعه: دلّوني على قبرها.

وأمام قبرها المزعوم، أقام المرقش، يحدّق في الشاهد، وهو يكاد يجن، يخاطب ساكنه، ويلوم حظه، ويندم على مفارقة محبوبته، ولو كان ذلك البعد من أجل نوالها في النهاية.

وتمضي الأيام، والمرقش لا يكاد يغادر مكانه، بعد أن عافت نفسه الطعام والشراب والمجد والفروسية، ولم يعد له من أمل في الحياة يشحذ عزيمته، أو يدفعه لتحريك عضلة واحدة في جسمه.

وفي يوم، والمرقش مُختفٍ تحت ثوب قديم، يغطّي جسمه الذي نحل، جوار القبر، سمع صبيًا يقول لصاحبه: هذا كعبي، منحوه لي من الكبش الذي دفنوه في هذا القبر، وقالوا للمرقش إنه قبر أسماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذهل المرقش، وظل يحدق في الصبيين فترة، قبل أن ينفض عنه وهنه، ويذهب كالعاصفة لعمه، ويواجهه بما عرف، فلم يستطع الإنكار، فتعاظمت المصيبة في عين الشاعر الفارس المخدوع، إذ هكذا استباح أقرب أهله إليه خداعه، وباعه من أجل المال، ثم زاد في الخسة، فكذب عليه، وأسلمه ليد الحزن طائعا، كل هذا الوقت، حتى كادت نفسه تزهق وتفنى!

وبلا تردد، ودون حسابات أو خطط مستقبلية، ركب المرقش فرسه، وانطلق إلى حيث علم أن أسماء تعيش مع زوجها، مع أجير لديه وزوجته، وقد قرر أن يخوض معركة جديدة، لاستعادة فتاته.

لكن قرب نجران، مرض المرقش، الذي لم يكن يأكل طول الفترة السابقة إلا الفتات، حتى تمرّد عليه جسمه، وقرّر معاقبته على تجاهله كل هذه الفترة، فنزل الثلاثة كهفا وأقاموا به أيامًا، وحالة المرقش تسوء أكثر، حتى أوشك على الموت، وهو لا ينفك يردد اسم أسماء، كلما فتح عينيه وأصاب بعض الوعي:

سكنْ ببلدة وسكنت أخرى / وقطعت المواثق والعهودُ

فما بالي أفي ويخان عهدي / وما بالي أصاد ولا أصيدُ

وربّ أسيلة الخدين بكر / منعمة لها فرع وجيدُ

لهوت بها زمانا في شبابي / وزارتها النجائب والقصيدُ

أناس كلما أخلقت وصلا / عناني منهم وصل جديدُ

وقرّر الأجيران فجأة ترك المرقش في محنته، إذ يئسا من شفائه، فغادراه، وبقي هو أسير المرض والوحدة. لكن النهاية لم تكن قد حانت بعد.

تحامل المرقش على نفسه، وزحف حتى باب الكهف، فيما اقتربت أغنام ترعى منه، فلمحه الراعي، فذهب إليه، وواساه، وقد رأى الموت في عينيه، فقص عليه المرقش حكايته، واكتشف أنه يعمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لدى زوج أسماء، فجرت الدماء بعروقه، وطلب من الرجل خدمة أخيرة، حيث منحه خاتمه، وطلب منه أن يضعه في إناء لبن أسماء.

أشفق الراعي عليه، ولم ير بأسا في تلبية أمنية رجل يحتضر، ففعل ما طلب منه، عن طريق جارية أسماء، وعندما وجدت أسماء الخاتم في إنائها، عرفته، وطلبت زوجها، وقالت له أحضر راعي غنمك، فلما حضر، أخبرها بالأمر، فبكت حتى كادت روحها تزهق، وأقسمت على زوجها أن يحملها حتى الكهف، ففعل، وأخيرا اتصلت عينا المرقش مرة أخرى بعيني أسماء، فجن جنونه، وهاجت مشاعره، وأحس أن لو كانت هذه مكافأة عمره الذي ضاع، وسنينه التي تفلتت من بين يديه، لكان رابحًا.

وحملته أسماء وزوجها لدارهما، لكن القدر سبق بكلمته، فمات العاشق المتيّم في بيت محبوبته، وقد كان يتمنّى أن يحيا فيه، ودفن في بلدها، فحقّق بالموت ما تمناه من قرب في الحياة فلم ينله.

مالك وظريفة... خصلة الشَعر المُحيية

مالك شاب من بني عذرة، حسن الوجه، جيد الشعر، كان في رحلة صيد ذات مرة، فمرّ بعين ماء، اجتمعت حولها مجموعة من الفتيات، لم تلفت انتباهه منهن سوى واحدة. انفردت بنفسها تمشّط شعرها الطويل، فلما أطال النظر إليها، وقعت في قلبه. وتحرّك فؤاده بحبّها.

وتشجع الفتى وذهب يتحدث إليها، فلما ردّت عليه، هاله جمال صوتها، حتى سقط مغشيًا عليه، فرّشت ظريفة عليه الماء، ولما أفاق، أنشد:

خرجتُ أصيدُ الوحش صادفتُ قانصًا / مِن الريم صادتني سريعًا حبائلُه

فلمّا رماني بالنبالِ مسارعا / رقاني وهل ميت يداويه قاتلُه؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد مالك إلى قومه، لا يدري ما به، إلا أن المرض تمكّن منه، فلم يبرحه، حتى سألته أمه سرّ ما يعاني، أخبرها بالقصة، فذهبت إلى ظريفة، وتوسلت إليها أن تزوره ليشفى، فرفضت. لكنها أعطتها خصلة من شعرها، حين أمسكها مالك، ومّررها على وجهه، أفاق.

لم يَعد لمالك همّ سوى ملاحظة ظريفة، واختلاس النظر إليها وهي بين أقرانها، ومحاولة كسر الحصار حولها للقائها، لكنه لم يستطع، ولم يكن بيده سوى الشعر رسولًا بينهما، فحمّله شكواه ونجواه، وجعله لسان حاله لمحبوبته.

وذهب مالك لخطبة ظريفة، لكن أهلها رفضوه، لقوله الشعر فيها، كعادة العرب قديمًا، إذ كانوا ينفرون ممن يتغزل في نسائهم، ويخشون لو زوجوه، أن يُظّنُ بنسائهم السوء، وزادوا فأسرعوا بتزويجها من أول رجل طرق بابهم.

لما عرف مالك الخبر، بكى بكاء يقال إنه لم ينقطع أيامًا، واسودّت الدنيا في عينيه، حتى بدا كأنه فارقها، وهو لا يزال على ظهرها.

حاول أهله تسليته، ومواساته، فلم يكن يستمع إليهم، حتى كفّ تمامًا عن الطعام والشراب، ولم يعد يفتح فمه إلا لقول الشعر في محبوبته، حتى انطبق فمه مرة أخيرة.

وكان آخر ما قاله:

ليبكني اليوم أهلُ الودّ والشفق / لم يبق من مهجتي إلا شفا رمق

اليوم آخر عهدي بالحياة فقد / خلصتُ من ربقة الأحزان والقلق

ولما علمت ظريفة الخبر، أتت قبره، وظلت تبكيه، وتحسو ترابه على رأسها، حتى انقلبت ميتة جواره، وسط بكاء كل من حضر الواقعة.

مُرّة بن عبد الله وليلى.. الشعر على خط المواجهة

هو مُرّة بن عبد الله بن هليل، أحد بني هلال، وكان شاعرا مُقلا، أوقف شعره على محبوبته، وجعله درعًا تصدّ عنها مَنْ سواه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكان أوّل محبٍّ في التاريخ يستخدم الشعر سلاح ردع!

عشق ابنة عمه ليلى، وعشقته، وكان من الممكن أن ينالها، لولا أدركته خطيئة الشعر، ووصف حسنها وجمالها، فمنعها عنه أهلُها، كعادة العرب قديما، إذ كانوا ينفرون ممن يتغزل في نسائهم، ويخشون لو زوجوه، أن يُظَنُ بنسائهم السوء!

وجنّ الشاعر إذا بلغه رفض أهلها، وقرّر أن يلقّن الجميع درسًا، فراح يهجو كل رجل يفكر في الارتباط بفتاته، ويقول فيه شعرا مقذعًا تسير به الرواة، حتى تحاشى الجميع الاقتراب منها!

وجدّد الشاعر طلب فتاته، بعد فترة، أملا في أن يكون عمّه قد اقتنع أن أحدا لن يأخذها غيره، لكنه رُفض ثانية، وثالثة، وزاد بلاؤه أن تجاسر رجل اسمه المنجاب بن عبد الله بن الهيثم، وطلب يد فتاته، غير عابئ بما يقوله فيه من شعر، فوافق أهلها فورًا، وزفّوها إليه رغمًا عنها!

وحمل المنجاب ليلى ورحل بها، كأنما يهرب من وجه مُرة، لكن ليلى لم تتحمل الفراق، فمرضت، وماتت كمدا!

وجاء رجلان يحملان الخبر لمرّة، فلم يكد يصدقهما، حتى أقسما له، فأغمي عليه، وعندما أفاق، أنشأ يتحسّر عليها، ويبكي، ويدعو على من أبلغه الخبر بالموت.

ولم يتحمّل مُرة البقاء بعيدا عن فتاته، ولو كانت ميتة، فرحل إلى قبرها، وجعل يلقي ترابه على رأسه، ويبكي، ويتحسّر على أيامه معها، ويقول:

أيا قبر ليلى لا يبست ولا تزل

بلادك تسقيها من الواكف الديم

ويا قبر ليلى غيبت عنك أمها

وخالتها والناصحون ذوو الذمم

ويا قبر ليلى كم جمال تكنّه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكم حزت منها من عفاف ومن كرم

وأقام مرة جوار القبر، لكنه لم يصمد طويلا، إذ عاف الطعام، ورفض الصحبة الآدمية، وغرق في ذكرياته وأيّامه مع فتاته، حتى أكله الندم، ومضغته الحسرة، إلى أن حفّت به رحمة اللّٰه، وانتزعت روحه، ففارق حياة الكدح والمكابدة، إلى حيث يمكن أن يُكتب له لقاء آخر في ملكوت الرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموت سلطان

"لا أكره الموت، أعرف أنه موظف حكومي يؤدّي واجبه بإتقان وبراعة، بلا تحيّزات مسبقة ولا ضغينة شخصية، أكره فقط ما يُحدثه من تغيير: خلخلة الحياة وترحيل الأهداف. الوجوه التي تختفي وتذوب، فنجد عسرًا في تذكّر ملامحها مع الوقت، البهجة التي تتحلّل رويدًا فلا يبقى سوى مذاقها الحريف على طرف اللسان، قبل أن يبتلعها العدم للأبد. الأشياء التي لا تعود لطبيعتها أبدًا، لوعة الروح وهي تبحث عن وليفها فتتعثر في عظامه. المساحات الفارغة في القلب التي تبحث عمن يملأها، فلا تجد من يناسبه المقاس، فتظل الريح تصفّر فيها للأبد. الوحدة والوحدة والوحدة!"

صاحب بيت وأكثر

كنا نقول في الماضي، إذ حضرتنا وفاة أحدهم، ونحن نُمصمص شفاهنا في تصعّب، إن الموت "ضيف ثقيل".

الآن لم يعد ضيفًا، لكن صاحب بيت، وأكثر!

يدخل أينما يشاء ووقتما يشاء، فينتقي ويفاضل ويفاصل، ولا يخرج مهزومًا أبَدًا، ولا خالي الوفاض، وإنما فائزًا في كل مرة، بأفضل الناس وأكرم الناس، وأبعدهم عن يده، أو هكذا كنا نظنّ!

كنتُ محظوظًا فلم أقع تحت ضِرْسِه كثيرا، حتى تخطّف أبي، على غير انتظار، فأصبحتُ تعسًا، لا أنفك أتلقّى منه الزيارة تلو الزيارة، كأنه ولّيّ حميم، خصوصًا في اللحظات التي كنت أظن فيها أنني أفلتُّ فيها من براثنه، وأصبحتْ بيننا بلاد!

كأن أبي كان حارس بوابة الموتى، وبرحيله، انهار السدّ الفاصل بيني وبينه، فلم يعد هناك من يحميني منه أو يدافع عني إزاءه!

رحل أبي، وبعده بأشهر قليلة ابنةُ أختي الطفلة ذات الثلاث عشرة سنة، ثم زوج عمتي، ثم عمي، ثم عمتي، ثم عمي الآخر، ثم...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولفترة طويلة، ظلت الكوابيس تُمسك بتلابيبي، فأصحو قُرب الفجر يوميًا، مرتجفًا باكيًا لاهثًا غارقًا في عرقي، أنادي باسم أبي، وعيناي معلقتان بباب الحجرة، كأن سيسمع ويستجيب، كأن سيمد يده من وراء الموت ويربت رأسي! قبل أن أهبط من على السرير، وأدبدبُ برجلي على الأرض بقوة، لأشعر بشيء صلب أسفل مني، بشغلِي حيزًا من الفراغ، أقرص يدي وأحيانا أعضّها، أشرب زجاجة كاملة من المياه المثلجة على بُق واحد، وأدع الماء يسيل على صدري ويُغرق هدومي، أنا حيّ، أنا موجود، لم يبتلعني العدم بعد، ولم ترفع اللانهائية رايتها فوق قلبي!

يدخل الموت فجأة، فتُحنَى له الجباه، وتغيبُ الأنفاس، ويتفطّر القلب بالأسى، وتنهمر العين بالدموع، ثم إذا وُرِي الجسدُ الترابَ، وانصرف المعزّون يُبسملون ويحوقلون، عادت الحياة سيرتها الأولى، كأن شيئا لم يكن، وعدتُ أُقرفص صاغرًا في جوف السؤال الوجوديّ نفسه: هل أُكمل اللقمة وأنتهي من المقال وأتّصل بحبيبتي وأستمر في دفع اشتراك الجيم، أم أنه لا شيء يهم، لا شيء له معنى أو قيمة، في ظلّ تشابه النهايات، ووضوح آخرة السباق الذي نهرول فيه جميعا دون وعي؟!

لا أكره الموت، أعرف أنه موظف حكومي يؤدّي واجبه بإتقان وبراعة، بلا تحيّزات مسبقة ولا ضغينة شخصية، أكره فقط ما يُحدثه من تغيير: خلخلة الحياة وترحيل الأهداف. الوجوه التي تختفي وتذوب فنجد عسرًا في تذكّر ملامحها مع الوقت. البهجة التي تتحلّل رويدًا فلا يبقى سوى مذاقها الحريف على طرف اللسان، قبل أن يبتلعها العدم للأبد. الأشياء التي لا تعود لطبيعتها أبدًا، لوعة الروح وهي تبحث عن وليفها فتتعثر في عظامه. المساحات الفارغة في القلب التي تبحث عمن يملأها، فلا تجد من يناسبه المقاس، فتظل الريح تصفّر فيها للأبد. الوحدة والوحدة والوحدة!

في المناسبات الصاخبة، أقف في ركن وحدي، أُعطي ظهري للحضور، وأخلُص بوحدتي نَجيًا، أحدّق في اللاشيء، في البعيد الذي قد يأتي وقد لا يأتي، أقارن بين قمّة الامتلاء، والفراغ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المـدقع، ذروة الضـوضاء، ودَركـات الصمت المميت، وأكتشـف، لدهشـــتي، أن الحـالات جميعـها لـيس حقيقيـة لـهذه الـدرجة، الخطوط ليست صارمة، والمسميّات لا تعني تماما ما تشير إليه، الأمر جميعه تجليّات للروح التي يمكن أن تجد البهجة في عمق الحزن، والحزن في عمق البهجة. فلا شيء بهذه الجدية حقًا في عمرنا، لا الحياة، ولا الموت!

...

يمـوتون، ويعبـرون الخـط الفاصـل بـين الممكـن والمسـتحيل، يتركوننـــا خلفـــهم، نحـدّق فـي آثـار أقـدامهم، نتـذكر نكاتـهم وقفشاتهم، ملمَسهم، رائحتهم، جنونهم، حنّيتهم، غباءهم، وغبائنا! نضحك حينا، ونبكي أحيانًا، نتمنى اللحاق بهم في مرة، وفي مرّة نتمنّى عودتهم إلينـا، لنشرب الشاي على المقهى معًا، ونقتسم السيجارة، وآخر عشرة جنيهات في جيوبنا، نأكل في طبق واحد ونخطف الطعام من بعضنا بعضا، نجلس متجاورين في ظلام السينمات، نتشاكس، نغنّي بصوت قبيح، نجوب الشوارع وقت هطول المطر ونحن نلتهم الآيس كريم، ثم لا يتحرك أحدُنا من مكانه، لا يأتون ولا نرحل، لا يسمعون ولا نكفّ عن النداء، ويبقى الوضع على ما هو عليه، وعلى المتضرّر اللجوء لعالم الأحلام، علّه يحنّ عليه، ويبرّد قلبه، ويأتي له بمن فارقه ولو لحظات، تعينه على إكمال الطريق، حتى الحلم التالي!

هنتقابل في الجنة تاني

في آخر أيامه، بابا كان بيتحجز كتير في المستشفيات، وبدخل معاه مرافق، آخر مرة دخل المستشفى الدولي بالمنصورة، مصابا بالغيبوبـة اللـي مـا فـاقش منـها تـاني، كـانوا حطّينـه فـي عنبـر الميؤوس منهم تقريبا، أو بمعنى أدق: اللي مستنيين جواز السفر!

لما بدخل أي مستشفى -لحد النهاردة- ما بدوقش فيها نقطة ميّة حتى لو معدنية، ولا باكل لقمة واحدة، كنت أفضل طول اليوم صايم، وأما بابا ينام، أنزل، وأخرج برّه السور، وأشرب بق ميّة وحلاض على كده، كان عندى شعور طفولى إنى لازم أفضل غير

61%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاضع لسطوة المستشفى، خارج حدودها، وعازل تفاصيل حياتي عنها، ومش مُستسلم لطقوسها، عشان أفضل حر وقوي وقادر أتعامل!

فى المستشفى الدولي، قابلت شيماء لأول مرة!

طفلة عمرها ما يزيدش على ١٠ سنين، والدتها كانت محجوزة بجلطة في المخ، ومستنيّة قضاء ربّنا، كانت بتيجي مع جدّها، لأن والدها مات من زمان، وملهاش إخوات، وجدها فعليًا آخر قريب حي من أهلها!

شيماء كانت الحاجة الوحيدة المبهجة في المكان، فرغم حزنها وخوفها ودموعها، كان ليها طريقة معينة في الابتسام، تخلّي الكون كله ينوّر!

كنت بستنّى ميعاد الزيارة مخصوص عشان أسلّم عليها وأبوسها، فأتشحن قوة لآخر اليوم.

ولما أتعب أو أتهد، أقارن طولي وعرضي بهزالها وضعفها، وأفتكر قد إيه هي صامدة، وبتقوم باللي لازم تقوم بيه بشجاعة ودون شكوى أو تذمّر.

ما أنساش مرة ما خرجتش من الأوضة في ميعاد الزيارة، كان والدي لسّه خارج من أزمة عنيفة، وأنا واقف في الركن لازق ضهري في الحيطة، ومتبّت بإيدي في الجدار، وببص له برعب، ومش قادر حتى آخد نفسي، والدموع بتلمع في عنيا!

فجأة لقيت إيد شيماء بتتمد وتطبطب عليا، وابتسامتها منوّرة وشّها، اتنفضت وهي بتشدّني وتاخدني برّه الأوضه، وبعدين شبّت لفوق فانحنيت ليها، قامت لفت إيدها النحيلة حوالين رقبتي، وقالت لي: ماتخافش يا عمّو، كلنا هنتقابل تاني في الجنة.

بكيت بحرقة يوميها، وحضنتها قوي، وهمست لها: ربنا يخليلك ماما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت لي: تيجي نقرا له قرآن؟

ومن غير ما تستنّى رأيي، خدتني من إيدي ودخلت أوضة بابا، وباسته من راسه، وقالت له:

- سلامتك يا عمو

وبدأت تقرا له سورة يس.

في اليوم التاني شيماء ما جاتش، لأن جدّها مات!

قلبي اتعصر على الطفلة المسكينة اللي بقت وحدها تماما، واللي مصيرها تقريبا بقى معروف، لكن ده ما كانش كفاية، بعدها بيومين بالظبط، والدتها كمان فارقت الحياة!

ما بقيتش مصدّق قسوة الدنيا، ولا فاهم الحكمة والغاية، ويومها، قعدت أناجي ربنا، وأقول له: له يا رب كل الألم والعذاب والمرض والفقد والمحنة والمكابدة دي في الدنيا؟! وليه الغلابة والمساكين؟! وبعدين أبص لأبويا وقناع الأوكسجين على وشّه، وهو بيجاهد لالتقاط أنفاسه بصعوبة، وأرجع أرفع راسي للسما وأقول: اللهم لا اعتراض.

الفترة دي تحديدًا من عمري، كانت قاتمة ومليئة بعِبر ومِحن وابتلاءات ما فهمتهاش غير بعديها بسنين طويلة، وبعضها لحد دلوقتي لسّه مش قادر أفكّ شفرته!

وشوفت شيماء أخيرًا، جاية مع جيران والدتها تستلم الأمانة، وشّها غايم وعنيها غرقانة دموع. كأنها كبرت عشرين سنة، ومش هترجع صغيرة تاني!

حضنتها وقلت لها: كلنا هنتقابل تاني في الجنة.

فبصّت لي وهي تايهة، وفتحت بقها عشان تقول حاجة، بس ما قالتش.

آخر لقطة وإحنا بنشيل والدتها من على سرير المستشفى، وننقلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الترولي عشان ياخدوها لمثواها الأخير، جزء من رجليها اتعرّى غصب عننا، فجريتْ شيماء، اللي مراقبة أدقّ التفاصيل، كأنها بتمتصّها قطرة قطرة، وسترت أمها بسرعة.

دعيت لها في سري يصونها ويحفظها، ويعوّضها عن اللي ضاع منـها، ومـا يجمعـش عليـها وجـع الفقـد ووجـع مكابـدة الحيـاة، والغريب إني دونًا عن كل عبارات العزاء والرثاء اللي اتقالت لي وأنا بسلّم أبويا لقبره، وببصّ له البصة الأخيرة، افتكرت كلمتها هي بالذات وهي بتقولي: كلنا هنتقابل تاني في الجنة يا عمّو!

واختفـت شـيماء، زي كـل الحـاجات اللي بتلمع فـي عمرنا فجأة وتنطفي فجأة، ودارت الدنيا بينا، وابتلعنا الثقب الأسود مجددا، لكن عمري ما نسيت البنت الحلوة اللي هوّنت عليا أحزاني في أصعب موقف في حياتي.

الفصل الأخير حصل النهاردة فيما يشبه المعجزة، بل هو معجزة فعلا!

لقيت رسالة على فيس بوك، من بنوتة زي القمر بتفكرني بنفسها وتقولي إنها شيماء بتاعة المستشفى، وبترجّعني في ثانية لعمر كامل ما يتنسيش!

صرّخت من السعادة، وكدت أحضن الكمبيوتر، وبعت أسألها عن كـل التفاصـيل، شيماء ما ضاعتش فـي الزحمة، ولا مشيت فـي طريق بطّال، ولا انكسرت وبقت ناقمة على العالم والحياة، شيماء أحـد جيرانـها ربـاها مـع ولاده، وحـاليا بتـدرس فـي كليـة تجـارة، ومخطوبة لابن جارها بعد قصة حب رائعة.

قالت لي إنها عمرها ما نسيتني، ولا نسيت عمو مصطفى، وإنها كانت بتدعي له مع مامتها، والصدفة البحتة خلّتها تقرا بوست ليا عـن أبويـا، اتكلمـتْ فيـه عـن فتـرة مرضـه، عنـد صـديقة ليـها، فافتكرتني، وقررت تتواصل معايا!

ما بقيتش مصدّق، ولا مستوعب، قد إيه الدنيا صغيرة، وممكن تبهرنا بتدابيرها، وتوصّل لنا رسايلها مع من لم نتوقع!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا فخور بيكي يا شيماء، وممتن للغاية لوقوفك جنبي، وممتن أكتر إني اتطمّنت عليكي، وواثق إن ظهورك في الوقت ده في حياتي، رسالة، أتمنى أقدر أفك رموزها وأفهم محتواها كويس.

وربنا يرحمك يا حبيبي، ويجعلك -حيا وميتا- سببا في إدخال السرور إلي قلبي ومباركة خطواتي.

فقط عِش

أشار لي بيده، ونهض من مجلسهم فورًا، عندما رآني أتلفّت حولي، باحثًا عنه، داعبوه وهو يغادرهم، فضحك حتى سعل، ورفع أصبعه في الهواء محذّرا، قبل أن يهلّ عليّ بوجهٍ مضيء وممتلئ نعمة.

أمدّ يدي نحوه، فيخطفني في حضنه، ويعصرني كما الأيام الخوالي، ثم يختار أريكة لازوردية مُريحة، تُحيط بها زهور تشعّ بهجة وتصدح بالموسيقى. يُجلسني ويجلس جواري:

-

حسبتُك لن تأتي.

-

وهل أقدر؟

-

كيف حالك؟

-

لعلّك تعرفه أكثر مني!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما زلتَ تبحث عن إجابات؟

كففتُ عن ذلك عندما أدركتُ فداحةَ الأسئلة!

لا تحاول فهم كل شيء، الذين حاولوا، أضاعوا الحياة والفهم معًا.

إنها طبيعتي!

لا يوجد شيء اسمه الطبيعة، الطبيعة قميصٌ نرتديه أمام الناس لنبدو مثلهم فيألفونا، ولا ينفرون منّا، ثم لا نلبث أن نغيّره بتغيّرهم وتغيّر الظروف والبيئات والأحداث، والذي لا يتغيّر ديناصور أو جاهل!

طمئِني عليك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياتي أسهل من حياتك.

-

كيف؟

-

أعـيش للبـهجة والاكتشـاف والضـحك علـى أخطـاء الماضـي وطموحاته وعبثه وصراعاته، وكيف كنتُ أضيّع اللحظات الثمينة في أسئلة أكبر من وجودي ذاته!

-

أفتقدُك.

-

أنا أيضا أفتقدُك، لكن حتى هذه ليست مشكلة، لأنها مسألة وقت حتى نتجاور.

-

مضتْ ٩ سنوات!

-

الوقت خرافة أخرى من الخرافات التي يجب أن تتخلّص منها، كـل اللحظـات موصـولة، والمسـاحات متّصـلة، والعـوالم مرايـا لإحداها الأخرى، لا يوجد ماضٍ وحاضر ومستقبل، وهُمْ وأنتَ، وتاريخٌ يخصّ الآخرين وتاريخٌ يخصّك وحدك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتفع صوتهم يصفّرون ويهلّلون من أجله، فلوّح لهم مُستمهلا، قبل أن ينهض، ويزرعني مرة أخرى في حضنه، ويهمس في أذني:

- عِش، فقط عِش.

دمعتْ عيناي وأنا أتعلّق بذراعه، وأتحسّسه، كأن ذلك سوف يشفع أمام الفراق الوشيك، قبل أن أهمس بصوته نفسه، وملامحه نفسها:

- سأفتقدك.

يبتسم، يهزّ رأسه، يداعب شَعري بأصابعه الكبيرة القوية، ويغمز لي وهو يتحرك ناحية شِلّته بتؤدة. تختفي المعالم من حولي واحدًا وراء الآخر، كأنه يمسحها بخطوته، أو يُطفئ عنها النور، فتغيب، بينما تحلّق فوق رأسه، الهالة التي لم تكن تفارقه، فيبدو ضوءًا فردًا واحدًا ساعيًا لمنبعه، فيما أتضاءل وأصغر وأعود لظلمتي الأبدية.

...

- في الذكرى التاسعة لوفاة مصطفى إبراهيم.

أو أدنى!

كنتُ دائمًا ما أسألُ نفسي: لحظةَ أواجهُ الموتَ، هل سأضحك؟ أبكي؟ أحرّك يدي أمامي بعصبية كي أدفعه وأُتعبه قبل أن ينالني؟ أقول حكمة تتناقلها الأجيال؟ أشتم وأسبّ؟ أم أكتفي بالصمت البليغ؟

يقال إن بيتهوفن على فراش الموت، رفع قبضة يده ولوّح بها في الهواء، قبل أن يقول: صفّقوا يا إخوان فقد انتهت المهزلة، فيما قرّر المتنبي الهربَ من وجه من اعترضوا طريقه، لينالوا منه جرّاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هجائه رجلا اسمه "ضبة بن يزيد العتبي"، فقال له خادمه بدهشة: كيف تفرّ وأنت القائل (الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ)؟ فتوقّف المتنبي، ورمقه بنظرة مقت ثم قال بتخاذل: قتلتني قاتلك الله، ورفع سيفه واشتبك حتى قُتل، وقال خالد بن الوليد في آخر لحظاته: شهدتُ مئة زحف، وما في بدني موضع شبر، إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء!

بالأمس واجهتُ الموت.

اقتربتْ مني أنفاسُه الباردة، وتحسّستْ جبيني مخالُبه في حنو، وقبضتْ أنامله المعروقة على حبّة قلبي!

كنت أركبُ عربةَ أُجرة متّجهة من موقف العاشر، إلى مدينة العبور، وبينما توقّف السائق على جانب الطريق، ليُنزل أحد الركاب.. اندلعت الزلزلة فجأة!

عربة ملاكي تقودها امرأة بصحبتها طفلة، انقضَّت على ظهر سيارتنا كقنبلة، في لحظة مجنونة وخائنة، فدفعتنا بالكلّية للزحف والتمايل والرجرجة عدّة أمتار، وكسرت الباب، وحطّمت الزجاج، وحصرتنا بين الكراسي، فيما تفادتنا -بمعجزة ما!- سيارة نقل هائلة أخرى كانت تجري خلفنا في اللحظة ذاتها، كأنّما لتنفّذ ما عجزتْ عنه الملاكي!

كان الموت قاب قوسين.. أو أدنى!

لحظة الملامسة، لم أشعر بشيء، لا حب ولا كراهية ولا خوف ولا أمان ولا شوق ولا افتقاد ولا حرّ ولا برد ولا حزن ولا فرح، بل لعلّي لم أكن موجودًا أصلا في الحدث، إنما تعاليتُ عليه، وخرجتُ منه في التوّ، لأرمقه من منظور "عين الطائر"، فرأيت عدما متّصلا ممتدا، كخطٍ مفرود على استقامته في شاشة مونيتور، موصولة بقلبٍ كفّ عن الحياة، قبل أن يُعيدني الألم الحارق في ظهري إلى الواقع، فيما يتكرّر أمام عيني بلا معنى في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتابع رتيب، مشهد ثابت ليدي وهي تُسقط الموبايل، وتنحشر أمامي، في وضع مستحيل فيزيائيا، بينما يتملكني يقين، لا أدري لماذا، أننا في "مُرجيحة" كونية عملاقة، نهبط من قمةٍ شاهقة ما، إلى قاع عميق مظلم وخانق وخيالي!

ثم توقّف كل شيء بغتة، كما بدأ بغتة!

ارتمتْ العربة أخيرًا على جانب الطريق، وانعدمتْ معها حركتُنا ومعاناتُنا لثوانٍ، قبل أن يحدّق كلُ منّا في الآخر بدهشة، وتعود إلينا أنفاسُنا على استحياء، وقدرتنا على الفعل، فنُلملم أطرافنا، ونُسرع بالفرار من وعد الموت، بينما نتحسّس أجسامنا، غير مصدّقين ما جرى لتوّه، وننظر برعب للسيارة التي تهشّم أغلبها بشكل لا يشي أن أحياء خرجوا منها فعلا، ونعاود الاطمئنان أن كل عضو في مكانه لم يغادره بعد، أو يعاني إصابة خفية لن تلبث أن تعلن عن نفسها!

ومع الدوشة التي تفجّرت، وتوقُّفِ العديد من السيارات للفرجة، وتجمهر الناس وبكاء طفل صغير لم أحدّد موقعه أبدًا، سحب الموتُ عباءته وعصاه، وأعطانا ظهره، ومضى فردًا، فلم يكن مقدّرًا لأحد أن يُؤنس وحدته اليوم.

في مواجهة الموت، يصبح التأخّر على الشيفت/الإيجار/الخلافات/قصص الحب الفاشلة/الأسئلة الوجودية العميقة/الحديث في السياسة/ فيس بوك/تعنّت مديرك/الأحلام/الطموحات/قسط السيارة/الكون بأسره.. محض هراء!

قاعدة "يحدث للآخرين فقط" انفجرت في وجهك أخيرًا، وتناثرتْ شظاياها فأدمَتكَ، وها أنت الآن، وفي التو واللحظة، أمام الوَحْش، الذي ظللتَ تتحاشاه طول اللعبة، وتحتمي منه بكَنزِ المال، والركض في الجيم، والذرّية -التي تتمناها صالحة- والصحاب -الذين لا يخلو كل سنتيمتر في جسدك من طعناتهم!- والجعجعة على فيس بوك والفولورز، وتصوّرت أن نجاحك في ذلك، حتى الآن، لن تعقبه خسارة، ولن تُجلّله هزيمة، ولن ينقلب سحرُه عليك، فأنت لاعب حريف، وبرنس فى نفسك، تعرف من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أين تؤكل الكتف -والصدر والورك أيضًا- وتملك حيلا لم تخطر على قلب بشر، قبل أن تكتشف -فجأة- أنك كنت جحشا مُبردعا، لم تفعل إلا ما أراده لك الوحش بالحرف!

وأنك في النهاية هفأ، لا شيء، أقل من ذرّة تراب، مهما اجتهدتَ لتغاير حقيقتك، وتغادر جلدك، وترتدي ملابس تنكرية، وتحصل على مزيد من المساحات التي لا تملكها!

تجري وراء الأوهام، وتتجاهل الحقائق، تغش وتسرق وتكذب وتخون وتتشقلب، تغنّي لنفسك وعلى نفسك، وتصدّق أنك هزمتَ كل ما اعترض طريقك، وأزحته عن حياتك، وأصبحتَ أقوى وأسرع وأطول وأحدّ بصرًا وأعلى صوتًا، لكنك في كل مرة، تكتشف عمق هوة الوهم التي تتردى فيها، ثم.. تملأ الدنيا صراخًا، عندما يدقّ بابُك، ذات يوم حذفتَه من نتيجة الحائط عمدًا، وتجد أمامك "المُحاسب" يقدّم لك الفاتورة، ويطالبك بدفع الثمن فورا!

فهل كنت تعتقد حقا أن هناك شيئًا مجانيا في الحياة؟!

حسنًا، إنه ليس كذلك، فاستعدّ لدفع الفاتورة في أي لحظة الآن.

تمرير الحياة مِن وريد الموت!

محزنٌ وصادمٌ ولا إنساني، أن تعرف أن أبًا فقيرًا في مدينة المحلّة، يعمل حدادًا أمام النار في الصباح، ويقف على رجليه طول الليل، حارسا لنادي بلدية المحلّة، من أجل توفير لقمة عيش لأسرته، اكتشف فجأة إصابة ابنه البالغ من العمر 13 عاما بالسرطان، ففتش في جيوبه، فلم يجد إلا ثقوب الفقر والعِوز، فانكسر واكتأب، ولم يجد حلا سوى الانتحار!

هكذا، في ظرف 10 أيام من تشخيص إصابة ابنه بالمرض اللعين، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ووقفت على قلبه قساوة الأيام بحوافرها فدهسته، آيَس من طلب العون من المحيطين به، الذين لا تختلف ظروفهم عن ظروفه، ولم يكن الخطّ بينه وبين ربه مفتوحًا في تلك اللحظة، فلم ير سبيلا سوى ركوب قطار اللي يروح ما يرجعش!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترك المرضَ وابنه وزوجته وحياته وأحلامه، بعد أن عجز عن رفع عينيه في عيني الطفل الصغير الذي لم يفهم بعد طبيعة الرحلة التي سيكون عليه خوضها، ولم يدرك ميراث الألم الذي سيحمله على ظهره منذ اللحظة.

رحل الأب ليضيف نظرة ذهول لعيني ابنه، وندبة إلى قلبه، وانحناءة إلى ظهره، لن تفارقه ما بقي له من عمر!

والناس الذين لم يمدّوا له يد العون في محنته الطاحنة، لم يقرأوا في عينيه قرار الموت، ولم يفهموا التحولات العميقة التي تجري له، يزايدون اليوم عليه، ليثبتوا خيريتهم في مواجهة شرّه المستطير، وإيمانهم المطلق في مقابل معصيته التي لا تغتفر، فيصفونه بالجبان والخائر والضعيف، ثم يجزمون -وهم يشربون الشيشة ويتناولون الشاي بالنعناع- أنه الآن يُشوى في نار جهنم وبئس المصير!

فيما أراه أنا بطلا.

فالرجل علم أن فقره لن يشفع لابنه في نيل أبسط حقوقه في العلاج، ورحلته لتسوّل الرحمة لن تُسفر في النهاية سوى عن بضعة قروش، لا تثني ولا تغني من جوع، وربما كلمات مواساة وتصعّب تجرح أكثر مما تداوي!

أتخيّله وهو قابع في الظلام، يحدق في اللاشيء، ولا نقطة نور واحدة أمامه، لا ذراع يتشبث بها، ولا مرشد يهديه خلال الطريق، فيبكي، وربما يصرخ، يعاتب ربه، ويسأله لماذا ابتلى ابنه ولم يبتليه هو، ولماذا اختار هذا المرض بالذات، ألا يحبّه، هل يضنّ عليه أن رزقه ابنا. وما الهدف من الحياة أصلا!

تتعاظم الهموم، وتُطبق على صدره، فلا يكاد يتمكّن من أخذ النَفس، ثم تلمع فكرة، من قاع الإحباط وقلّة الحيلة، تصعد ببطء، وتكبر، وتتعاظم، حتى تتراجع إلى جوارها كل الأفكار الأخرى، وتبقى وحدها في الصورة، فيمدّ يده المرتعشة ويلتقطها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالفعل، يُقدم الأب اليائس على فعل كبير ولافت، ليسلّط الضوء على حكايته، ويكون ثمن موته، حياة ابنه، ولحسن الحظ وللأسف في الوقت نفسه، نجحتْ الخطة، إذ ما إن انتشر الخبر، وغطّته وسائل الإعلام، وتناقل الناس القصة بالصعبانيات المعتادة، حتى استيقظت وزارة الصحة المصون من نعاسها، وأعلنت في عنترية تبنّي علاج الطفل اليتيم!

لقد نجح الأب الميّت فيما لم ينجح فيه الأب الحي، ومرّر الحياة لابنه، من وريده، وعبر أنفاسه، ووهبه فرصة ثانية لن يستطيع هو التمتع بها!

لماذا كرهنا صباح؟!

لم تكن صباح أكبر الموجودين سنا على الساحة الفنية أو السياسية، ومع ذلك كان الجميع ينتظرون رحيلها، ويتداولون من حين لآخر، خبر وفاتها، ثم يُمصمصون شفاههم في حسرة وحقد، عندما يتأكّدون أنها مجرّد شائعة! قبل أن تأتي في أعقاب ذلك، مرحلة السخرية من تشبّثها بالحياة، وإعادة إنتاج شائعات زواجها للمرة المش عارف كام!

ولا يوجد تفسير لذلك سوى أننا أعداء للحياة!

أعداء للحيوية التي كانت صباح تجاهد للتشبث بها لآخر نَفس، أعداء للحظات التواصل التي كانت تسعى للاستدفاء على وهجها، أعداء لكل من يحاول رفع رأسه فوق الموج، وتنفّس هواء نظيف غير مشبّع بالسياسة والنفاق والمصالح الشخصية!

لم تكن صباح، في آخر أيّامها، طرفا في أي معادلة سياسية، أو خصما لأي أحد، كانت جدّة عجوزا طيّبة مهتمة بنفسها قليلا، وتخاف الوحدة، فاستكثر عليها الناس ذلك، وعاقبوها في مخيلاتهم وعلى صفحات جرائدهم ومواقعهم بالموت ألف مرة!

اقتات الجميع على مائدة صباح الفنيّة، وأشبعوها تقليدا ونحتا وسرقة، والتقطوا الصور بصحبتها، وحرصوا على زيارتها في المستشفى لتتصدر صورهم المواقع الإلكترونية، واستضافوها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في برامجهم التليفزيونية، ومع ذلك لم يكفّوا عن ترديد الشائعات بخصوصها، وانتظار لحظة رحيلها! اليوم، أراحت صباح صفوف المنتظرين رفعها الرايةَ البيضاء، وكفّت عن التغريد، قبلت صفقة الموت الصعبة، وأسلمته قيادها، ومضت معه بهدوء، لتبدأ فصلا جديدا من حياتها، بلا شائعات، ولا طامعين، ولا فلاشات تصوير. اليوم، وُلِدَت صباح.

2014-11-26 - يوم وفاة الشحرورة

رحيل نور الشريف وروبن ويليامز مع بعض.. ولا أي حاجة!

الجميع تقريبًا لاحظ رحيل نور الشريف، في اليوم نفسه الذي رحل فيه الكوميدي الأمريكي الشهير روبن ويليامز، فهل هناك ما يريد القدر أن يُخبرنا به ها هنا؟

هل هي إشارة كونية لحدث جلل ينتظر البشرية؟!

هل هو مؤشّر لشيء ما خارج عن الأعراف والتقاليد؟!

هل هي لمحة إعجازية تكشف مجهولًا طال الاشتياق إليه؟

رأيي الشخصي: ولا أي حاجة!

الأمر أكثر عادية مما تخيّل العباقرة الذين كتبوا هذه الملاحظة على حساباتهم في فيس بوك بحماس، وكأنهم اهتدوا لسر من أسرار الكون، أو عرفوا أين يقبع مصباح علاء الدين الذي بيده تغيير كل شيء، أو نافورة الشباب التي يمكنها أن تمنحنا العمر الطويل لإعادة ارتكاب حماقتنا وتأكيد جهلنا بأنفسنا للأبد.

فالموت يزورنا كل يوم، وكل لحظة، يقصف أعمارنا، كبستاني يشذّب شجراته النافرات، وينثر طموحاتنا رمادًا في يوم عاصف.

الموت أكثر حقيقية من كثير من أحلامنا التي لا تكفّ عن معانقة المستحيل، رغم الخيبات التي لا نتوانى عن جمعها بحماس، وتعليقها على صدورنا كالنياشين!

الموت -كالحبيب الأوّل- يصّر دائمًا على تذكيرنا بحجمنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبيعي، خصوصًا في اللحظة التي نتصوّر فيها أننا قد تجاوزناه، وأصبحت قاماتنا أطول من قامته!

الموت ليس أكثر من ساعي بريد، ينقل إلينا رسالة عظيمة، ملّخصها: شكرًا لحسن/لسوء تعاونكم معنا، وإلى اللقاء في عمليات أخرى مقبلة، لكنها لن تكون هنا، على هذه الأرض، وإنما في السماء.

نحن نريد -من كل قلوبنا- أن نُوجد علاقة عبقرية بين رحيل النجمين في اليوم نفسه، بين التماع البرق واتخاذنا قرار إخبار حبيباتنا بمشاعرنا للمرة الأولى، بين نجاتنا من حادث سيارة مباغت وحصولنا على موعد لمقابلة عمل بعد طول جفاف، لأننا نعشق الأنساق، القوالب، وضع المتشابهات جنبا إلى جنب، ترتيب الأمور على هيئة جداول وأعمدة، كي نبدو أمام أنفسنا أكثر سيطرة على مقدّراتنا وتحكّما في تفاصيل حياتنا، فيما أنّه مجرد وهم، خدعة، حيلة نفسية مراهِقة، نمارسها أمام العجز الكامل الذي نوقن به في أعماقنا، أمام العدم المطلق الذي نسعى إليه كل يوم بلا كلل!

نسعى لإعادة ترتيب العالم وفق استطاعتنا، وقدراتنا المعدومة، بدلا من أن ترتّب ذلك لنا قوةٌ أكبر منا، تفرض علينا ما نكره، وتدفعنا بيد القدرة إلى خوض تجارب نحن في غنى عنها تماما، نسعى لارتداء عباءة اللّه، والتمرّد على كوننا مخلوقين ضعفاء، أحقر، وأقل، وأهون شأنا من جناح بعوضة!

مات العظيم نور الشريف، ومات العظيم روبن ويليامز، ومات العظيم أبي -كلهم عظماء بدرجة ما- وغدًا أموت، وبعد غد تموتون جميعًا، لا شيء عبقري في الأمر، أو متمرد، أو يحمل خصوصية ما، مجرّد حلقة في دائرة حياة، في مجرّة ما، في كَونٍ ما، تتمدّد لتنكمش، وتنطلق لتعود، وترتفع لتنخفض، قبل أن يرفع المخرج يده في مشهد النهاية الجليل، فيسود الظلام، مرة واحدة، وإلى الأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفرض عليّ وظيفتي أن أكتب مقالا طويلا عريضًا عن رحيل سعيد طرابيك، ليس لأنه فنان كبير صاحب أدوار لا تعوّض، فقد حُوصر في مساحات الصف الثاني والثالث طول حياته، ورغم موهبته الجميلة، لم يتصدّر الصف أبدا.

وليس لأن له موقفًا سياسيًا مغايرًا، يستحق تسليط الضوء عليه و"بروزته"، فلم يكن في حياته سوى الفن، والفن وحده.

لكن لأنه "تريند" الآن، والسبب يعرفه القاصي والداني، أنه -يا لوقاحته- تزوّج وهو في الرابعة والسبعين!

مصيبة ارتكبها الرجل، لم يسبقه إليها أحد من العالمين، والمصيبة الأكبر أن زوجته فتاة صغيرة وحلوة، وكانت تبدو على ملامحها السعادة يوم الزفاف.

طبعا عندما أصل لهذه النقطة، لابدّ أن أتحدث عن فرضية أن يكون غرض الزيجة الوحيد: المنفعة، الرجل يستمتع بالمزّة وهو "بيودّع"، والمزّة تستمتع بالشهرة وتسليط الأضواء!

ولن يفوتني بالقطع أن أهمز الراحل في رجولته، و"ألقّح كلام" على علاقته الجنسية بزوجته، والتي لا بدّ أن تكون -وفق المخيلة الشعبية المريضة!- هي السبب في وفاته المفاجئة!

حسنًا هذه هي المقادير الملائمة تمامًا لمقال يدخل من أوسع الأبواب حيّز الأكثر قراءة، ويحرص كل من هبّ ودبّ على قراءته، ومشاركته، وإطلاق نكتة أو اثنتين على الرجل، قبل أن يعود منتعشا إلى حياته العظيمة وإنجازاته التي سوف تغيّر وجه الكرة الأرضية، بعد ساعتين إلا ربع!

أما إن لم أفعل هذا، فسوف يغضب مني رئيس التحرير، ويلومني لتفويت فرصة الشماتة في الرجل وتجريسه، ويعطيني درسًا عظيمًا في المهنية ودور الصحفي واحترام ما يطلبه القرّاء، وربما يلومني قرّائي أيضًا لأنني خذلتهم، ولم أكن على مستوى طموحاتهم، وسوف تلومني زوجتي، لأنني لن أظفر بالـ 200 جنيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفرض عليّ وظيفتي أن أكتب مقالا طويلا عريضًا عن رحيل سعيد طرابيك، ليس لأنه فنان كبير صاحب أدوار لا تعوّض، فقد حُوصر في مساحات الصف الثاني والثالث طول حياته، ورغم موهبته الجميلة، لم يتصدّر الصف أبدا.

وليس لأن له موقفًا سياسيًا مغايرًا، يستحق تسليط الضوء عليه و"بروزته"، فلم يكن في حياته سوى الفن، والفن وحده.

لكن لأنه "تريند" الآن، والسبب يعرفه القاصي والداني، أنه -يا لوقاحته- تزوّج وهو في الرابعة والسبعين!

مصيبة ارتكبها الرجل، لم يسبقه إليها أحد من العالمين، والمصيبة الأكبر أن زوجته فتاة صغيرة وحلوة، وكانت تبدو على ملامحها السعادة يوم الزفاف.

طبعا عندما أصل لهذه النقطة، لابدّ أن أتحدث عن فرضية أن يكون غرض الزيجة الوحيد: المنفعة، الرجل يستمتع بالمزّة وهو "بيودّع"، والمزّة تستمتع بالشهرة وتسليط الأضواء!

ولن يفوتني بالقطع أن أهمز الراحل في رجولته، و"ألقّح كلام" على علاقته الجنسية بزوجته، والتي لا بدّ أن تكون -وفق المخيلة الشعبية المريضة!- هي السبب في وفاته المفاجئة!

حسنًا هذه هي المقادير الملائمة تمامًا لمقال يدخل من أوسع الأبواب حيّز الأكثر قراءة، ويحرص كل من هبّ ودبّ على قراءته، ومشاركته، وإطلاق نكتة أو اثنتين على الرجل، قبل أن يعود منتعشا إلى حياته العظيمة وإنجازاته التي سوف تغيّر وجه الكرة الأرضية، بعد ساعتين إلا ربع!

أما إن لم أفعل هذا، فسوف يغضب مني رئيس التحرير، ويلومني لتفويت فرصة الشماتة في الرجل وتجريسه، ويعطيني درسًا عظيمًا في المهنية ودور الصحفي واحترام ما يطلبه القرّاء، وربما يلومني قرّائي أيضًا لأنني خذلتهم، ولم أكن على مستوى طموحاتهم، وسوف تلومني زوجتي، لأنني لن أظفر بالـ 200 جنيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكافأة على المقال، والتي ربما كانت تكفي أن يأكل الأولاد لحمًا مرة ثانية هذا الشهر. فيما يبدو أنها مؤامرة كونية ضد طرابيك!

لكني، رغم كل ذلك، لن أفعل، ولن أكتب سوى عن فرحة طرابيك الذي حقّق حلمه بالارتباط بمن أحبّها، وهو ما يعجز كثيرون عن تحقيقه، وعن الونس والدفء الذي ملآ أيامه الأخيرة، والذي ربما نظلّ عمرنا بأكمله نبحث عنهما ولا نجدهما، وعن النشاط والأمل والحماس الذين ظلّوا من سماته الأساسية لآخر لحظة في حياته، بينما الشباب لدينا يهرمون في العشرين، ويترهلون في الثلاثين، وفي الأربعين يبحثون عن المعاش المبكر.

سأكتب عن طرابيك البرنس، الذي ضرب عرض الحائط بالقيل والقال، ورقص في فرحه وغنّى، ووقف مبتسمًا أمام المصوّرين، وقال بلسان الحال "أنا مبسوط يا إخوانًا وطظ في أي حد"، وصرّح للفضائيات والصحف والمواقع بقصة حبّه، وتفاصيل علاقته المثيرة، ورغبته في إنجاب 11 طفلا مثل سيدنا يعقوب، على حد قوله.

طرابيك الذي رحل ما نفسوش في حاجة يا إخوانًا، وتركنا نحن في أرض النفاق، نهري وننكت ونتحايل على جلال الموت ونعصر أدمغتنا كي نستغّل اللحظة، ونحصل على قرّاء وإعلانات وترافيك وتعليقات، نغيّر صور بروفايلاتنا، ونبحث عن طريقة "كيوت" لانتقاد السيسي كي لا نتهم أننا إخوان أو ولاد كلب مش فاهمين حاجة وعايزين يوقّعوا البلد، ونفكّر ماذا سنفعل بعد أن يرفدونا في الشغل آخر الشهر ومهنة الصحافة بتجيب ضلفها، وكيف سندفع الإيجار، و نملأ الثلاجة، ونشتري أي حاجة للشتاء اللي هاجم ده و...و...و...و...و...

مع السلامة يا عم سعيد.

وإيه يعني لما مجدي يعقوب يموت؟

بين حين وآخر، تنتشر "أنباء" عبر السوشيال ميديا، عن موت أحد المشاهير، مرّة عادل إمام، ومرة مجدي يعقوب، ومرة أحمد زويل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقبلهما، طويل العمر -اللي هيدفنّنا كلنا إن شاء الله!- حسني مبارك، لكن الشهادة لله، الأخير لم يمت كثيرًا مؤخرًا، لعلّه يمرّ بوعكة صحية صعبة تمنعه من الموت!

ولو رجعنا بالذاكرة قليلا، سنجد "صباح". سيّدة الموتى الأحياء، والتي كانت المواقع كلّما لم تجد أخبارًا، تقود لها الترافيك، وتجعل الناس تجيب في سيرتها ع الفاضي والمليان، تُميت صباح ثلاث أو أربع ساعات بالكثير، قبل أن تحييها مرة أخرى، على لسان ابنة أختها، أو أحد معجبيها، وبعدها بأيام لا بدّ أن يتصدّر خبر زواجها من عيّل يصغرها بعشروميت سنة، المواقع نفسها!

لكن..

متى أصبح الموت فيه.. "أنباء" عن موت فلان؟!

ولماذا أصبحنا نعامل المشاهير بهذه الطريقة، ونضعهم على قائمة انتظار الموت، ونتسرّع بحذف أسمائهم من دفاتر الأحياء، وإسكانهم العالم الآخر، لدى أول إشارة؟

هل نكرههم لهذا الحدّ؟

هل وجودهم في الحياة يكشف محدوديتنا، وعدم أهميتنا لهذه الدرجة، من ثم نسارع بالشماتة في رحيلهم، كأننا نريد أن نقول إن التافه والعظيم، والمهم وغير المهم، والذي جاع ولم يجد قوت يومه والذي شبع حتى التخمة، والذي نام على الحصير وترك علامات في ضلوعه، والذي نام على ريش نعام، يرحل في النهاية؟!

والأسوأ: رد فعل الناس على السوشيال بعد وقوع الواقعة!

حيث تبدأ موجة التعازي الحارّة، لدى الصدمة الأولى، وربما تغيير صورة البروفايل، ونسبة الأفاعيل الخارقة للفقيد، ووصفه بكل الأوصاف الرائعة في العالم، تعقبها موجة الذمّ والانتقاص، وتذكّر سقطات ومثالب الراحل، ونسبة كل المصائب التي حدثت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالم إليه، ثم موجة الفريق الذي يسخر من الفريقين، ثم موجة الفريق الذي يسخر من الفريق الذي يسخر من الفريقين، ثم موجة....

عبث مطلق، تضيع أمامه رهبة الموت، والدرس الذي من المفترض أن نأخذه منه، والعبرة التي ترافق كل حدث في حياتنا، حتى يصبح خبرًا كغيره، عابر سبيل لا يلفت انتباهنا، ربع جنيه مخروم سقط من جيوبنا في منطقة مظلمة، لا يثير في نفوسنا أي شيء!

أين إنسانيتنا يا إخوانا؟!

أين تلك المنطقة المنفصلة داخلنا، التي يجب أن تظلّ بعيدة عن القبح والخطيّة والغباء، كي نظل نسكن إليها، ونتفيّأ ظلها، فنعود بشرا أسوياء، وقادرين على مجابهة الحياة بكل ما فيها؟!

لقد أعطتنا السوشيال ميديا اتّساع الرؤية، وأخذت منّا الرحمة، منحتنا الانتشار، وسلبتنا الإنسانية، أمدّتنا بوسائل للتواصل، وحرمتنا دفء المصافحة وأمان الحضن!

صديق سألني، بعد تأكّدنا من أن الدكتور مجدي يعقوب بصحة جيدة، إثر شائعة وفاته التي انتشرت اليوم: وإيه يعني اللي هيحصل لما يموت؟

بناء على ما سبق، أتخيل أن "التريند" سيسير في هذا الاتجاه:

الذين تعاملوا مع الرجل ويعرفون مآثره، وجهده الصادق في خدمة المرضى، سوف يملؤون "تايم لاينهم" بالدعاء له بالرحمة والمغفرة، وينشرون بعضًا من سيرته العطرة، وهنا تحديدًا سيظهر من يردّد: وهل يجوز طلب الرحمة للنصارى يا ولاد الكلب؟ قبل أن يظهر الأخ الذي سيذكّرنا بما فعله "الصليبيون" في العالم العربي، ويستحلب أسطورة تصدّي صلاح الدين البطل لهم، وهي اللحظة المثالية لظهور آخر يسبّ الدين للمتدينين، ويقول لهم بلهجة المعلّم: إن الدين لله والوطن للجميع، ويعقوب خدم المسلم والمسيحي، والرحمة بيد الله، يمنحها لمن يشاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولن ينتهي اليوم سوى بحبّة بلوك حلوين وشتائم وبرينتات سكرين واستعداء لطوب الأرض ضد طوب الأرض، من الجميع وإلى الجميع أيضا، قبل أن تأوي قبيلة المتناطحين في النهاية لأسرّتهم، منهكين، مخوّخين، دون أن يقدموا شيئا للعالم ولا لأنفسهم، يوم آخر تافه مثل غيره، لم يستفد منه سوى مارك زوكربيرج، البرنس الذي أنشأ حديقة حيوانات كبيرة، ضمّتنا جميعا، وجلس خارجها يلتهم الفيشار ويعد الملايين!

وبين هذا وذاك وأولئك، تغيب حقيقة أن رجلا أنهى رسالته في الحياة، وأن حسابه على الله، وأننا جميعا نوشك أن نلحق به، فماذا قدّمنا، وماذا ننوي أن نقدّم، وهل أنجزنا قدرنا في الحياة؟ هل حققنا كل الأشياء العظيمة التي قررنا -أو تمنينا- أن نحققها؟ أم أننا، كما يقول أعداؤنا الوحشين اللي ظالمنّا، كِمالة عدد، اسم سيختفي من التاريخ بعد سنتين تلاتة، وينضم لطابور الواقفين في الظلام في انتظار تجلّي النور الأعظم يوم القيامة، ليأخذ كُل حقه؟!

هاه.. ماذا قدَّمت؟

عزّة

عندما توفي والدي، منذ نحو عشر سنوات، حزنتْ ابنة أختي ذات الثلاثة عشر ربيعًا عليه بضراوة، لدرجة أنها كانت تبكي في الفصل، كلما تذكّرته، وذات مرّة سألتها مُدرّستها:

- بتعيّطي على إيه يا عزة؟

- أصل جدّو مات.

- كان عنده كام سنة؟

- ٧١.

- هيء هيء، يعني ما دوّبش بدلة الفرح يا بت؟ هيء هيء!

كفّت عزة عن البكاء، ونظرت إليها مذهولة، وهي لا تصدق ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمعتُ. البنت الصغيرة تتلقى درسًا عمليًا في التشوّه الإنساني، وتفتح عينيها لأوّل مرة على وضاعة بعض البشر.

"وما علاقة المعزّة والحب بالعمر؟" سألتني بعد أن حكت لي، وهي تواصل بكاءها، ثم قالت بتحدٍ:

"الحب من حق الكبار والصغار، الجميلين والقبيحين، الذين رحلوا والذين يحاولون أن يفعلوا!"

بعد ثلاثة شهور.. ماتت عزة!

عزّة كانت مريضة بالسكري، الطفلة الباسمة المرحة التي تحفظ كتاب الله، وتعلّمه لزملائها، أخطأ طبيب حمار في علاجها، فدخلتْ في غيبوبة، استمرّت يومين، قبل أن تلحق بجدّها!

وعندما أخبروا أستاذتها العظيمة، لم تضحك هذه المرّة، ولم تُلقِ تعليقا سخيفًا عن لبس الفرح، فعزّة لم يكن مخططا لها ارتداؤه في الدنيا، كما يبدو.

قبل رحيلها بفترة وجيزة. حلمتْ عزة حلمًا عجيبًا، لم يفهمه أحدنا إلا فيما بعد، رغم مباشرته!

رأتْ نفسها نائمة على فراش جدّها، في بيتنا القديم، وهو يدخل إليها من الشبّاك، ويقول لها "تعالي معي". هكذا بمنتهى البساطة والوضوح، ودون أي تورية، وعزّة التي أحبّته، وتعلّقت به أكثر من باقي الأحفاد، لم يهن عليها أن تكسر بخاطره، أو ترفض طلبه الأخير، فذهبت معه!

في الليلة الأخيرة.

اتصلتُ بأختي وهي مع عزّة في الطوارئ.

لم أجد كلامًا.

فقط أبقيت الخط مفتوحًا بيننا، لا تمرّ عبره سوى الأنفاس الواهنة ودقات القلوب المترقبة، وأنا لا أدري ما تخبئه اللحظات المقبلة. وإن كنت أتوقّع، في النهاية، تحدّثتْ أختي بصوت قوي

76%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدهشني:

- ما تقلقش عزّة بخير، وإحنا راضيين تماما بقضاء ربنا.

أختي هذه، القوية المؤمنة، أمي الثانية، التي لا أشعر بالأمان إلا في حضرتها، قبل هذه اللحظة بثلاثة أشهر فقط، تُوفّي أبي بين ذراعيها في المستشفى، كان في غيبوبة هو الآخر، وأسلم الروح وأنفاسها آخر ما بلغ جوفه!

اختارت عزّة الصباح لتغادر العالم.

اتصلتْ بي أختي. كنت أرتدي ملابسي لأذهب إليها:

عزة، البقاء لله.

جريتُ بأقصى سرعة على الحمّام. لأهرب من نظرات أمي التي شعر قلبها بالمصيبة. أغلقتُ الباب على نفسي، وانهرت في البكاء.

لماذا يا رب!

هاجمتني الصور من كل اتجاه، عندما كنت أعاكسها وأجري وراءها، فتتوقف بعد فترة لاهثة وتقول:

"خلاص بقى إنت الكبير"!

وعندما كنت "أبرشط" على مصروفها وأستلفه منها، قائلا "أنتِ ومالكِ لخالك، مش الأئمة اللي بتدرسي لهم بيقولوا كده؟" فتضحك وتقول لي "ده مش فقه الإمام أحمد ده فقه أم أحمد"، فأتركه لها متظاهرا بالغضب وأنا أقول: "يا هبلة كنت هستثمرهم لك، يلا ملكيش في الطيب نصيب".

عزة التي نويت أن ألتحق بمعهد القراءات في شربين بسبب حماسها للالتحاق به مع دراستها، وقررتُ حفظَ القرآن لأتفوّق عليها.

عزة الطيبة الخلوق التي كانت تحمل الكل فوق رأسها، ولا تشكو أبدا أو تتذمر أو تبدي اعتراضها على شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عزة التي كانت في حالة انسجام وألفة مع الكون كله، لم أختبرها أبدا.. ماتت.

دخلتُ عليها المستشفى، وهي مسجّاة على الترولي، والملاءة فوق وجهها. لم تُرد أختي أن أفعل، لكني فعلتُ. كشفتُ الملاءة وحدّقت فيها.

إنها عزّة فعلا.

قبّلت جبينها، وبكيت!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سباحة حرة

"في الواقع، فرويد أخطأ كثيرًا، عندما قال إن الجنس هو المحرّك الأساسي للإنسان، الفلوس يا عزيزي فرويد، الفلوس هي "الزتونة" الحقّة، فهي التي تشتري الجنس، وتشتري الإنسان نفسه، وربما كانت قد اشترتك أنت شخصيًا، لو كنتَ من الغباء بحيث استمررتَ على قيد الحياة أكثر من هذا، في هذا العالم المجنون!"

الفلوس يا عزيزي فرويد!

نحن لا نعمل "شِفتين"، ولا نَحْفَى، ونُكلّف أنفسنا ما لا طاقة لنا به في الشُغل، من أجل تحقيق الذات والغايات الكونية العابرة للقارات، كما نقول عادة ونُباهي، لكن من أجل "الفلوس"، ولو وُجدَت لما بحثنا عن الشهرة والمجد والتحقق وإشباع الذات، والحاجات التخينة دي، ولانشغلنا بإنفاقها على سعادتنا وإبهاجنا.

وهو ما يتّضح بقوّة في حالة الفيلسوف الذي لا يملك ثمن تفاحة، فيقضي وقته في وصفها، وتحليل ماهيتها، وسبر كينونتها، وتفصيص جبّلتها، فيما يقرأ الغنيّ ما كتبه مبتسما، ومسترخيًا على فراشه، فيما يلتهم التفاحة في تلذّذ.

فالفلوس ليست رجسًا من عمل الشيطان، ولا "كِمالة عدد"، كما يحاول الزعماء والمصلحون والأغنياء في كل العصور إقناعنا، لكنها آلة زمن لتحقيق كلّ رغباتنا، أو أغلبها على الأقل.

وكون الفقر أساس صنع التاريخ، والفقراء ملح الأرض، شعارات ملاوعة وخيبانة، يرفعها الأغنياء عادة في وجوه الفقراء، كي يستمروا في تقبّل فقرهم، والرضاء بحالهم، دون محاولة تغييره، والثورة عليه وعليهم، ولو لم يكن عثمان بن عفان غنيًا مثلا، لتغيّر وجه التاريخ الإسلامي!

وفي لقاء قديم ونادر، جمع بين الموسيقار عبد الوهاب ومفيد فوزي، سأله المحاور الجهبذ عن علاقة الفقر بالإبداع، فضحك طويلا، وقال إنه لا توجد أي علاقة، فلو كان المبدع جائعًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومريضًا و"مكسورًا" عليه الإيجار، فكيف يجرؤ الإبداع على أن يطرُق بابَه، ولو فعل، لما فتح له أحد!

وآدم وحواء، كانت لهما الجنة بما فيها، فطمِعا في زيادة ثروتهما من الخيرات، فأكلا التفاحة، ونزلا، وأنزلونا معهما الأرض، لتكون أغلى تفّاحة في التاريخ، حيث كان ثمنها: عذاب مليارات البشر!

أما الفقراء المعدمون الذين أبهروا العالم، فمجرد استثناء، يُثبت القاعدة ولا ينفيها، وطُرَف يتندّر بها الأغنياء في مجالسهم وملاهيهم، عن كيف يستطيع الإنسان تكسير المتعارف عليه طول الوقت، وتحدي كل شيء، في سبيل إثبات أنه ليس نباتا أو صخرة أو ريهام سعيد، ولكن كائن حيّ!

ولو كان هؤلاء الفلتات أغنياء، لتحقّقوا أكثر، ولطارت شهرتهم إلى آفاق أعلى لم يبلغوها، والأهم: كانوا قد عاشوا حياة رغدة تليق بإنسانيتهم. بل لو سألتهم أن يستبدلوا بإبداعهم حفنة من الفلوس، لقبل أغلبهم، ولباسوا الأرض تحت قدميك فرحة وحبورا!

حتى أنا، أكتب هذا المقال طمعًا في ثمنه، فيما أنّه لو كان مجانيًا، لتكاسلتُ عن التفكير فيه، ثم كتابته، ثم تسليمه، وربما فضّلت عليه مباراة إكس بوكس مع ابني، أو حتى الاسترخاء على السرير مع مجّ نسكافيه ورواية تافهة أقتل بها الوقت قتلا.

في الواقع، فرويد أخطأ كثيرًا، عندما قال إن الجنس هو المحرّك الأساسي للإنسان، الفلوس يا عزيزي فرويد، الفلوس هي "الزتونة" الحقّة، فهي التي تشتري الجنس، وتشتري الإنسان نفسه، وربما كانت قد اشترتك أنت شخصيًا، لو كنتَ من الغباء بحيث استمررتَ على قيد الحياة أكثر من هذا، في هذا العالم المجنون!

في ذمّ البشر ومدح مايكروسوفت وورد

دائمًا ما يتصوّر الإنسان -أو يحاول أن يُقنع نفسه- أنه الأفضل بين مخلوقات الله، فهو الأذكى، والأغنى، والأكثر وسامة، هو القادر على إقامة الدنيا بالحرب، وإقعادها بالهُدنة والتصالح وتقديم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التنـازلات، لكـن التجربـة العمليـة، وآلاف المـواقف التـي نعرفـها جميعًا، تُثبت عكس ذلك على طول الخط.

بل دعني أذهب لأبعد من هذا قليلًا، وأُخبرك سرًا، ربما لم تكن تتوقّعه في يوم من الأيام: مايكروسوفت وورد، أفضل من أي صديق يمكن أن تصادفه في حياتك.

لا تصدقني؟

حسنًا.. دعنا نطالع معًا الفارق بين مايكروسوفت وورد وأي صديق آخر، ثم نلتقي في نهاية المقال، لآخذ رأيك مرة أخرى في الموضوع:

1- يتحمّلك الوورد طول اليوم، دون أن يتذمّر منك أو يشكو، أو يطلب منك إذنًا بالانصراف، لحلول موعده مع فتاته، أو لرغبته في الخلود لبعض النوم، ليستيقظ مبكرًا للذهاب لعمله.

2- إذا انقطعت الكهرباء يواسيك الوورد بمحاولة استعادة ما كنت تعمل عليه لحالته الأصلية، حتى لا يضيع جهدك هباء.

3- صفحة الوورد بيضاء دائمًا أمام وجهك، مهما كانت مشاعره أو مشاعرك تجاهه.

4- يحاول الوورد أن يصحح أخطاءك قدر استطاعته، ليُظهرك بأفضل صورة ممكنة أمام الآخرين، وهو في سبيل ذلك "يُشير" لهذه الأخطاء، ولا يجهر بها، أو يخبر بها كل من يعرف، فإن أردتَ الأخذ بنصيحته فبها ونعمت، وإلا فأنت وما ارتضيت لنفسك.

5- الوورد يُسهّل لك مهمة نسخ المعلومات ونقلها من مكان لآخر، دون أن يسألك عن السبب أو يصدّع رأيك، باعتراضات لا لزوم لها.

6- عِشْرتك مع الوورد تمتد ربما لأكثر من عشر سنوات دون سابقة غدر أو خيانة واحدة.

7- لا يفرض عليك الوورد شيئًا، ودائمًا يتيح لك العديد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخيارات، حتى لا تفعل شيئًا وأنت مضطر أبدًا.

8- إذا غبتَ عن الوورد لأي سبب كان، لا يُلحّ عليك بالسؤال، ولا يتدخّل في خصوصياتك، ولا يُرهقك بأسئلته المخابراتية عما فعلته بعيدًا عن عينيه.

9- هناك Help دائمًا في الوورد، يمكنك اللجوء إليه، للاستفسار عن أي شيء بخصوص البرنامج، لا أسرار، لا تعقيد، لا محاولة لإخفاء الصفات الحميدة، فقط مصارحة وتعاون، منذ أول لحظة.

10- لا يعايرك الوورد بكل الخدمات التي يقدّمها لك، وإنما يعمل في صمت، مكتفيًا بسعادتك وفرحتك بإنجاز عملك بواسطته، مكافأة له.

11- عندما يفسد الوورد بسبب سوء استخدامك في الغالب، فإنه ينسى إساءتك له في لمح البصر، ويتيح لك إعادة تثبيته على جهازك مرة أخرى، ويعود بنفس صفاته وخصائصه، دون لوم أو عتاب أو تبييت النيّة للانتقام منك.

12- إذا فتحت صفحة وورد، وجلست بالساعات تتأمل الفراغ الممتد، فإنه لا يتعجّلك أو يشدك من كمّك كي تكتب شيئًا، وإنما يتركك على راحتك، حتى تأتي الفكرة أو لا تأتي.

13- يتعامل معك الوورد بنفس الطيبة، سواء كنت مسلمًا أم مسيحيًا أم بوذيًا، فهو غير طائفي بالمرة، ويؤمن بالمساواة بين جميع الأديان.

حسنًا.. بعد كل هذا، لا تزال عند رأيك؟

صادق مايكروسوفت وورد يا صديقي، واستغنَ به عن باقي البشر.

مفاجأة عيد الميلاد!

في العام الماضي، وصلتني مئات التهاني في عيد ميلادي، إضافة لمئات بوكيهات الورد والتورتة والدعوات الطيبة من أصدقائي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبر فيس بوك والإيميل.

أما هذا العام، فتصادف أن عطّلتُ حسابي على فيس بوك، قبل عيد ميلادي السادس والثلاثين، بيومين، فلم يظهر لأصدقائي أي تنبيه، والنتيجة: لم تصلني تهنئة واحدة، ولم يتذكرني سوى أفراد عائلتي الصغيرة!

فلم يعد أحدٌ يتذكّر مناسبات أصدقائه الخاصة، أو يحرص على تدوينها في ورقة يحملها في محفظته كالماضي، ويستعد قبلها بأسابيع، بعد أن سلّمنا رقابنا وأيامنا "تسليم أهالي"، واعتمدنا كليًا، على ذلك الساحر المسمى فيس بوك ورفاقه.

فما يقول عليه الموقع الأزرق، نلتزمُ به، وما يغفل عنه، نغفل عنه نحن أيضًا!

التكنولوجيا قطعتْ بنا أميالا للأمام في سبيل إنجاز مهامنا وتسهيل نمط حياتنا، وأميالا أخرى للخلف، فيما يخصّ التواصل الإنساني، وأبجديات المودّة والرحمة!

وعلى قدر ما أعطتنا من مباهجَ ومسرّاتٍ، حرمتنا مباهجَ أخرى أكثر أصالة، وأبعد أثرًا في تقوية إحساسنا بأنفسنا وبالآخرين.

فهل يتذكّر أحدٌ الخطابات، كروتَ المعايدة، الكروت الموسيقية، أشرطة الكاسيت؟!

لا أعتقد!

والشيء بالشيء يُذكر، منذ فترة، عثرتُ مصادفة على مجموعة من الخطابات القديمة، مكتوبة بحبر أزرق على ورق أصفر، كان أبي وأمي يتبادلانها عندما كان معارًا في الجزائر، أي منذ 34 عاما تقريبًا، فبُهتُّ وأنا أغرق في عالمها المذهل، من رقّة وشوق وتقدير وإيثار، وأبيات شعر، واقتباسات من أفلام وأغانٍ. حب حقيقي لا تُخطئه العين، ملمس الخطاب وحده كفيل بتوصيل ألف رسالة، الاعتناء بالفاصلة والنقطة ووضع التشكيل أحيانًا، وإرفاق صور ذات معنى من حين لآخر، عالم كامل من التفاصيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي لا يمكن تصوّرها أو نسيانها. ولليوم تتذكّر أمي عباراتٍ كاملةٍ من هذه الخطابات!

فهل نتذكر نحن عبارات "الشات" التي نتبادلها عبر الماسنجر، أو الإيموشنز؟!

أبدًا!

ربما لهذا كانت علاقاتهم أقوى وأكثر دفئا واستمرارا.

أما نحن فنتنازل عن إنسانيتنا، وأهمّ ما يميّز جنسنا يومًا بعد يوم، في مقابل "بعض" المكاسب التي نتصوّر أنها أهم، وأنها قادرة على تعويضنا عن الحياة الحقيقية التي يُفترض أن نعيشها.

ولا أحد يشعر بخطورة ذلك. الكل سادرٌ في غيّه، سائرٌ في الطريق الطويل للفقد، والتباعد، والتحوّل إلى إنسان آلي، بلا أي تأنيب ضمير، ثم يتساءل في لحظة ما: لماذا لم أعد أشعر بطعم الأشياء؟

والإجابة لأن هذه ليست الأشياء "الحقيقية" لتشعرَ بها. كمن يأكل هامبورجر بلاستيكي، أكثر جمالا، وألوانا، باهر التغليف وعبقري الرائحة، لكنه بلا أي طعم!

والمصيبة ليست أننا نتناول البلاستيك من زمن، ونحن سعداء وفرحون، لكن أننا نتصوّر أن هذا هو الطعم الحقيقي للأشياء!

والمصيبة الأكبر: أننا سنستمر في هذا الطريق، غالبا للأبد، ننال مكتسبات تكنولوجية أكثر، في مقابل التفريط في مزيد من إنسانيتنا.

في فيلم الأنيمي Wall E يعيش البشر في مستعمرة كبيرة بالفضاء الخارجي -بعد أن أفسدوا جو الأرض، بسبب تقدّمهم الصناعي- متمتعين بكل ما يمكن تخيّله من رفاهية، وفي الوقت نفسه يعانون بدانة مفرطة تُلزمهم الجلوس طول الوقت على مقاعدهم، فيما يحضر إليهم كل ما يريدونه في لمح البصر.

82%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو المشهد الذي أدهش Wall E الآلي نفسه!

والطريف أنهم حتى عندما يتحدثون إلى بعضهم، يفعلونها عبر شاشات هولوجرام مثبتة أمام مقاعدهم (وهو المشهد الذي نرى صـورة مصـغرة منـه عنـدما يجلـس أفـراد الأسـرة الواحـدة، أو الأصدقاء في "خروجة"، وبيد كل منهم تليفونه الذي يلعب عليه لعبة أما أو يحدّث أحدهم!).

وفي مشهد كاشف، يسقط أحد البشر من على مقعده، فلا يتمكّن حتـى مـن العـودة إليـه، ويضـطر لانتظار المساعدة من الآليين، لإعادته مكانه، فيما يمرق الآخرون من حوله بسرعة، دون حتى النظـر إليـه، ناهيك بمد يـد العون إليـه (وهـو مـا نـراه مـرة أخرى بصـورة عمليـة فـي الحـرائق التـي تشـتعل، أو الخنـاقات، فيـرفع الحاضرون جميعهم موبايلاتهم لالتقاط صور وفيديوهات لفيس بوك، دون التفكير في مساعدة المتضررين!).

وفي النهاية، يحقق قائد السفينة إعجازًا كبيرًا، عندما يهبّ لنجدة Wall E، فـيقف علـى قـدميه، لمـهاجمة الطيـار الآلـي، علـى أنغام سـيمفونية فخمـة، فاسـتحق بـذلك إعجـاب جمـيع السـكان وتشجيعهم، فالوقوف على القدمين فعل لم يعد البشر يرتكبونه -في الفيلم- منذ أجيال بعيدة!

فهل تسحبنا التكنولوجيا من أقدامنا وأيدينا وأدمغتنا.. لتكون هذه نهايتنا؟!

أعتقد.

على الهامش: كل سنة وإنت طيب يا أستاذ حسام يا برنس

المقال الأكثر قراءة

المفروض أن أكتب مقالا، يكون الأعلى قراءة خلال فترة وجيزة. هكـذا طلـب منـي مدير تحرير الموقع الذي أعمل فيـه، فعن أي شيء أكتب؟

شـهداء سـيناء، وبطـولات الجيـش فـي مواجـهة الإرهـابيين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيقولون منافق!

الحرية الجنسية والقانون الذي صدر في أمريكا لمنح المثليين الحق في الزواج؟ سيقولون منحلٌّ!

غلق محطة السادات، التي لم نكد نفرح بفتحها، ولسه هنقول "هيه"، قاموا قافلينها تاني؟ سيقولون جحش لا يفهم في الأمن القومي!

العلاقات الإنسانية التي تزداد هشاشة يومًا بعد يوم، تحت ضغط الظروف المادية والنفسية الصعبة التي نمرّ بها منذ فترة، حتى توشك أن تجعلنا مجموعة من الزومبي الذين لا يتحركون سوى لتلبية رغباتهم الطبيعية فقط؟ سيقولون تنظير فارغ!

استفزاز إعلانات التليفزيون، وتوحّشها لدرجة التهام الأعمال الفنية المقدّمة، وتحويل مشاهدتها إلى ابتلاء حقيقي لا يقدر على تحمله الكثيرون؟ سيقولون جاهل ولا يفهم في أصول البيزنس!

صديقتي التي أثخنتها القاهرة بالجراح، وأشبعها البشر غدرا وخديعة، حتى لم يعد في جسمها موضع لطعنة، فلملمت نفسها، وفردت الأجنحة نحو نويبع، لتقاتل من أجل مساحة شخصية ومحاولة لإثبات الذات؟ سيقولون شخصي جدا ولا يعنينا!

النفاق الذي أصبح يحكم كل شيء في مصر، خاصة في العمل، فلم يعد أحد يرتقي إلا به، أو يحقق شيئا من طموحه إلا من خلاله؟ سيقولون حاقد!

القراءة والكتابة ورسومات فان جوخ وموسيقى فاجنر وبيتهوفن التي لم تزل عنوان المودة والرحمة في هذا العالم؟ سيقولون مثقف والعياذ بالله ومنفصل عن الواقع!

مشاعر عدم الأمان التي تتعاظم داخل النفس، في ظلّ كل ما يجري من أحداث، والخوف على مستقبل أبنائي الذين تحمّلت كل شيء من أجل ألا يمروا بنفس ما مررتُ به، ويبدو أنهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيمرّون بما هو أسوأ منه؟ سيقولون متخاذل، ولا يقدّر خطورة اللحظة الراهنة!

استيلاء فيس بوك على أيامنا وطاقاتنا، حتى أصبحنا منفصلين عن الواقع تماما، وبعيدين عن أسرنا وذوينا والحياة الطبيعية للبني أدمين؟ سيقولون عدو التكنولوجيا، ويريدنا أن نرجع لأيام الجنيه الجبس!

رمضان الذي لم تعد فيه روحانيات ولا صلة رحم، وإنما كنافة بالمانجة ومسلسلات وعزومات نتباهى فيها بطول السُفرة وتعدد الأصناف عليها بلا داعٍ، سيقولون فقري!

فلم يعد أحد يمكنه أن يعبّر عن رأيه، ويتحدّث عن قناعاته وما توصّل إليه بتجربته، دون أن يُصنَّف، ويُوضَع في قائمة سابقة التحضير. الإرهاب ليس في سينا فقط، وإنما في نفوسنا، وفي حين نهاجمه ونصرخ في وجهه، إذا ضبطنَا غيرَنا متلبّسا به، نرعاه في أعماقنا، وننميه بكل حرص، حتى نحتاج إليه، فنطلقه بلا حياء في وجوه منافسينا.

ناهيك بأنه لم يعد من الوارد أن نتفق على شيء أصلا!

مضى ذلك الزمن السعيد الذي كنت تجد فيه معارضين ومؤيدين، الآن الكل معارض فقط، حتى إن لم يفهم، حتى إن لم يفطن إلى الملابسات، فصورة المعارض والمختلِف تجعله برنسا في نفسه، وله شخصية لولبية لا يستهان بها.

حتى فكرة الأعلى قراءة، ابتُذلت حتى فقدت معناها تمامًا، ففيها لعب بالترافيك، ويمكن شراؤها، أو اللجوء لأحد محترفي السوشيال ميديا لوضعك على القمّة. وإن كنت تريد طريقا أسهل لها، فعليك بالموضوعات الساخنة والمثيرة للجدل، والصور الملتهبة والفيديوهات الفجة، لتصبح الملك، الرُخص والخداع أصبح أسلوب حياة!

حسنا، ماذا تبقى في مصر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلة قليلة لا تزال تحاول أن تعبّر بصدق عما تشعر به، وتُكمل طريقها في صمت، وهي تدعو الله من قلبها، أن يتركهم الآخرون في حالهم، فقط يتركونهم، دون سخرية، أو تقريع، أو تحطيم مجاديفهم، علّهم ينعمون، ولو لفترة وجيزة للغاية، بسلام نفسي، أسهل منه هذه الأيام، اكتشاف البترول في غرفة نومك!

5 نساء فى حياتى

أحببتُ العديد من النساء، على شاشة السينما طبعًا، لأن زوجتي سوف تقرأ هذا الموضوع، ولا أريد أن يكون آخر ما أكتب!

عندك مثلا هنّومة، تلك الساحرة التي خلبت لب قناوي في باب الحديد، فلم يعد يرى غيرها، ولم يستطع أن يدرك الفارق بينه وبينها، ودور كل منهما في حياة الآخر، فأكمل في طريق حبّها لآخر مدى، حتى تجاوز الحد الفاصل، وجُنّ تمامًا، فكانت نهايته في مستشفى الأمراض العقلية!

لكن، بيني وبينك، ألا تستحق هنومة ارتداء القميص المقلوب من أجلها؟

الطريف أنني عندما كنت أعمل في شركة جود نيوز، اطّلعت على الشريط الأصلي للفيلم، فهالتني المشاهد المحذوفة منه، والتي كان أغلبها للفنانة هند رستم، في لفتات وحركات إغرائية، خشي الرقيب من إجازتها، حتى لا يجنّ الجمهور بلا شك، ويُقدِم على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت في قاعات السينما!

إنها هند رستم وكفى!

وسحرتني كذلك كريمة -صباح - في شارع الحب، بتحوّلها من أرستقراطية لاهية عابثة، إلى ضحية أخرى في مصيدة شعور أعظم، هو الحب، الذي طالما ذوّب الفوارق بين الناس بطول التاريخ وعرضه، وتسبّب بذلك في قيام الحروب، وزوال الأمم!

كنت أراقبها عن كثب، متوقّعا ترويض الحب لها، وإجبارها على أن تنزل من عليائها لتصبح من خادماته، فتتحدى كل شيء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجله: المال والأرستقراطية ووسطها الاجتماعي، وصولا للفوز بقلب حبيبها في النهاية، وهي مكافأة سخية، لعلها لا تتوافر لقصص الحب جميعا في النهاية.

وهل يمكن أن أنسى فايزة -سعاد حسني- في حب في الزنزانة، المرأة القوية التي تدافع عن رجُلها، وتقف في ظهره، حتى آخر لحظة، على الرغم من أنه لا الظروف ولا الوقت يسمحان لها بمثل هذا الترف!

سعاد حسني هنا لا تستخدم أنوثتها التي اشتهرت بها، وإنما دقّات قلبها، فترسم لوحة شديدة العذوبة والرومانسية، تتعالى على الزمن والتاريخ، وتحجز مكانها ضمن أيقونات الحب والفداء.

وهل أخبرك عن نادية -زبيدة ثروت- في يوم من عمري، وعن الرقة المفرطة حد الألم، التي احتلت قسطا وافرا من أيام شبابي ومراهقتي، حتى أخذت قرارا ألا أتزوّج سوى هذه الفتاة الساحرة بالذات، فإذا كانت قد خلبت لب العندليب، فكيف لا تخلب لبي يا مولانا؟!

كثيرًا ما كنت أشغّل الفيلم، فقط لأتفرج على عينيها، وهما تسرحان في عيني حليم، لم أكن أريدها أن تتحدّث، أو تتحرّك، أو تتورط في مشاهد درامية تُرهقها، فقط تنظر، وأنا الآخر أنظر، وعلى هذا فلينزل الستار!

وأثرني المثال البديع الذي قدّمته عصمت -شادية- في "مراتي مدير عام"، فأحببتُ طموحها ونجاحها، وفي الوقت نفسه رغبتها في المحافظة على بيتها، وتجاوزها أزمات نفسية عديدة، وقع فيها زوجها ببساطة، واستمرارها في الكفاح، ودفع عربة حياتها للأمام، لتقليل الخسائر، مهما بدا الفوز عسير المنال في النهاية.

كل الظروف كانت تهيب بها أن تتوقف، وتكفّ عما تفعل، أن تصبح زوجة عادية، أو تنتصر لطموحها وتعيش بلا حب، فيما أصرّت هي على أن تربح الاثنين معا، وهو ما تحقق لها في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النهاية.

وحلمتُ بأن تجتمع كل هؤلاء النساء في أنثى واحدة، فتكون على غير مثال، لكن لعلّها كانت ستتسبب في حرب كارثية كطراودة التي أشعلتها هيلين. فالعالم لا يتحمّل اجتماع الجمال والأنوثة والعقل والجدعنة في أنثى، لأن ذلك يفضح ذكوريته، ويهوي برجولته إلى الحضيض!

العالم في حاجة إلى الأنثى كما يقدّمونها: سلعة، ومانيكانا، ورمزا جنسيا، كي يظلّ يمجّد نفسه، وفَتوَنته، ويدفن رأسه في رمال الوهم التي لا تلبث أن تزيد يوما بعد يوم!

روايات هدّدت حياة نجيب محفوظ!

الكلمة في مواجهة السلاح..

يكتبُ الأديب بالورقة والقلم، ويتوقّع أن يردّ عليه مَن يردّ، أو يختلف معه من يختلف، بالورقة والقلم أيضًا، بالأفكار، بالكلمة، وليس بالرصاص الحي أو السلاح الأبيض!

مع ذلك، يزخر التاريخ بأولئك الذين خالفوا كل التوقّعات، ووجدوا في الكلمة المكتوبة خطرًا على حياتهم أو سلطتهم أو معتقداتهم، فقرّروا منازلتها رجلا لكلمة، ورفعوا في وجه مبدعيها أسلحة حقيقية، كادت تودي بحياتهم.

نجيب محفوظ، على عظمته، كان واحدا ممن امتدت إليهم الأيدي بالسوء، وحاولت إنهاء مسيرته الفنية وعطائه الإنساني، والغريب أن جميعهم لم يقرأ الأعمال التي تحرّك بسببها لاقتناصه، لكن كان في العمر بقية لم تزل، فباءت المحاولات كلها بالفشل.

السراب

المرّة الأولى، عندما أنهى محفوظ روايته النفسية البديعة "السراب"، التي يناقش فيها ارتباط بطله الشديد بأمّه، ما منعه من استكمال نموه النفسي والجنسي، فأصبح عاجزًا عن ممارسة حياته بشكل طبيعي. محفوظ استلهم الحبكة من شخص عاطل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخرّج في كلية الحقوق، لم يعرف بالرواية، ولم يقرأها، لكن أحد أصدقاء محفوظ من شلّة العباسية ذهب إليه وقال له "نجيب كتب عنك"، فأخذ مسدسا وذهب ليقتل الأديب الكبير!

وعندما وصل الخبر لمحفوظ، اضطر للاختفاء، حتى هدأ الرجل، وأقنعه أصدقاء مشتركون أن الرواية تناقش مفاهيم عامة، ولا علاقة لها به بشكل شخصي.

وفيما بعد، أدمن هذا الشخص، ودخل السجن، ثم سافر إلى الكويت ليعمل بمساعدة أحد اصدقاء والده، ومات هناك.

أولاد حارتنا

المرّة الأقرب، التي شكّلت محاولة اغتيال حقيقية لمحفوظ، وقعت في أكتوبر 1995، حيث طعنه شاب بمطواة في رقبته، بتهمة الكفر والخروج عن الملّة، والسبب: رواية أولاد حارتنا.

الطريف أن الشاب اعترف فيما بعد أنه لم يقرأ حرفا لنجيب محفوظ، وإنما أخذ أوامره ه من أمير جماعته، بضرورة تصفية الكافر نجيب محفوظ!

الرواية/ الأزمة نُشرت مسلسلة في جريدة الأهرام، بدءا من 21 سبتمبر 1950، قبل أن تتوقف 25 ديسمبر من العام نفسه، لاعتراض هيئات دينية على تطاول محفوظ على الذات الإلهية، وفق زعمهم، ولم تُنشر كاملة في مصر بعدها، ومضت 8 سنوات كاملة، قبل أن تظهر في طبعة دار الآداب اللبنانية ببيروت، عام 1967، فيما لم تُنشر في مصر إلا عام 2006 عن طريق دار الشروق، لذا كان غريبًا أن تتسبّب في أزمة عام 1995، إلا إذا كان الهجوم على محفوظ لأسباب أخرى غير أدبه!

محفوظ لم يمت بالطعنات، وفيما بعد، أعدم الشاب، رغم قول نجيب إنه غير حاقد عليه، وأمنيته أن يأخذ فرصة أخرى ليعلم ويفهم، ولا تنتهي حياته عند هذه النقطة، لكنه اختفى، كما اختفى أمير جماعته، ومن هللوا له يوم نفذ جريمته النكراء، وبقيت كتابات أديب نوبل الكبير تطبعها المطابع، وتتداولها أيدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محبيه في مصر والوطن العربي والعالم كله، حتى بعد وفاته هو شخصيًا، لأن الكلمة أقوى من الرصاصة، والفكرة لا تقضي عليها مطواة أو سكّينة في يد جاهل أو متعصّب.

أنا وجمال الغيطاني ولهطة القشطة!

علاقتي بالغيطاني بدأتْ مبكرًا، وجاءت من سكّة الحب.

كنت في الثانوية العامة، وذهبتُ لعمل نظّارة في أحد المحال بشربين. البنت المسؤولة كانت لهطة قشطة، بمجرد أن رأيتها، أحسستُ أنني استرددتُ نظري، ولم أعد في حاجة لنظارة!

كانت تمسك رواية "وقائع حارة الزعفراني" للغيطاني، ورغم أنني كنت دودة كتب، فلم أكن قد سمعت عن الرجل من قبل، فوقتي يومها كان مكرّسا لنزار قباني وفاروق جويدة وجبران والمنفلوطي ودستوفسكي ونجيب محفوظ.

بعد أن تسلّمتْ مني كشف النظارة، ودفعتُ الفلوس -طبعا لم أفاصل كي أبدو أمامها جنتل مان!- قلت لها على سبيل الحكّ:

-

آه، بتقري للغيطاني، ده برنس كبير.

-

قريت له إيه؟

أُسقط في يدي، لكنني أجبت بالفهلوة المعتادة:

-

كتير، الحقيقة هو كاتب ممتع، ويشدّك إنك تدوّري على كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعماله.

-

فعلا. أنا كمان بحب له قوي متون الأهرام.

-

طبعا، طبعا، ودي تتنسي.

قبل أن أذهب لاستلام نظارتي، بعد أسبوع، كنت قد اشتريت كذا كتاب للغيطاني، وعكفت على قراءتهم، بدافع التودد للهطة القشطة في البداية، ثم بدافع الفضول، فالدهشة، فالإعجاب، فالوقوع في أسر لغته وعوالمه وتركيباته المُشبِعة.

ورغم أنني لم أفز بلهطة القشطة في النهاية، لظروف يطول شرحها، فقد فزت بالغيطاني، رفيقا ومعلّما وحكّاء مختلفا.

المشهد الثاني الذي جمعني به، عندما كتب والدي -رحمة الله عليه- قصة قصيرة في مجلة "صوت شربين" المحلّية، القصة اسمها "راقصة مثالية" عن لقاء خيالي بين فنانة اختيرت راقصة مثالية، تقابل في القطار مدرّسا حصل على اللقب عينه، والفارق بين جائزتها وجائزته، وإسهامها في الحياة وإسهامه.

بطريقة ما، وقعت القصة في يد الغيطاني، وكتب عنها في أخبار الأدب، وهو يومئذ رئيس تحريرها، فأثنى عليها، وعلى كاتبها، وقال إن الأقاليم ظلمته، ولو كان يعيش في القاهرة لربما اختلف مصيره. أخبرني بهذه القصة صديق قرأ كلام الغيطاني، بعد رحيل أبي بنحو العام، ولو كنت علمته وقت كتابته، وقرأته عليه، لأبهجت قلبه.

المشهد الثالث، في بداية حياتي المهنية ومجيئي إلى القاهرة، عندما كنت أعمل مراجعًا لغويًا ومحرّر ديسك في مجلة سيدتي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان الغيطاني يكتب مقالات دورية فيها. يحكي فيها ذكريات رحلة الكفاح التي خاضها مع زوجته ماجدة ضد المرض اللعين.

كانت أوّل مرة أعرف أنه لا يكتب على الكمبيوتر، وإنما يفضّل ورق "الدشت"، الذي يكتب عليه بقلم أزرق خطا منمنما. كنت المسؤول يومها عن إعادة كتابة مقالاته على الكمبيوتر، وتدقيقها إملائيا ونحويا.

ورغم أنها كانت مهمة شاقة بالنسبة لي، لتعذّر قراءة بعض المفردات، فقد كانت ممتعة، كوني أقرأ للغيطاني "لايف"، وقبل قرائه!

المشهد الأخير، عندما التقيت الغيطاني العظيم لحمًا ودمًا، في ندوة نظّمها الموقع الإلكتروني الذي أعمل به، جئت متأخرًا، فلم أسمع ما قاله، لكني ظفرت بالسلام عليه، وتحيّته، والتقطت صورة معه. كنت أقول له إنه واحد ممن صنعوا لغتي وقدرتي على الحكي والخيال، وكان يقول لي إنه سعيد بلقائي، ويتمنى أن أصبح كاتبا كبيرا في المستقبل.

رحم الله الغيطاني الجميل، الذي أبهج طفولتي وشبابي.

رسالة بيتهوفن الأخيرة إلى العالَم

فَقَد بيتهوفن سمعه تماما في الثامنة والثلاثين عن عمره. فدخل عالم الصمت بلا رجعة، وأحكم إغلاق الباب خلفه، وجلس وحده مع هواجسه وخيالاته، فيما بدا سخرية مريرة من الأقدار، التي اختارت أهم حاسة بالنسبة لموسيقي كي تحرمه منها، وإن أعطت إشارة البدء لتجربة مدهشة، سيظل العالم يتحدث عنها طويلا: السيمفونية التاسعة "الكورالية"، أعظم أعمال بيتهوفن قاطبة، وأكمل بناء موسيقي وضعه إنسان، وأول سيمفونية تشهد تزاوجًا بين النغم الهادر والصوت البشري، حيث صدح الكورس في حركتها الأخيرة، بأبيات من قصيدة "إلى الفرح"، للشاعر الألماني شيللر.

صَمْتُ العالم المحيط ببيتهوفن، منحه قدرة أكبر على الإصغاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهواجسه وأفكاره، واختبار قناعاته التي اكتسبها عبر سنوات من مكابدة الدنيا، وتحقيق حالة من الوصل مع خفايا النفس البشرية، ربما لم تتسنّ لأحد سواه، وصولا لخلق حالة نغمية عجيبة، تجلّت كأروع ما يكون في البناء الشامخ الذي أقام عليه سيمفونيته المذهلة!

والذين سمعوا بيتهوفن من قبل، والذين لم يسمعوه، ستكون أمامهم هذه المرة، "إرادة" موسيقية نافذة ومتعالية على الزمن وعلى الحياة، وليس مجموعة من الأنغام المتّسقة التي تصدر عن آلات متحمّسة للعزف. السيمفونية التاسعة رسالة وداع ووصية كونية شديدة الخصوصية من فنان رأى في الموسيقى دينًا يوحّد القلوب على اختلاف مذاهبها، ويأخذ بأيدي الجميع إلى "الفرح"، فبشّر به.

يقول عنها الراحل الكبير حسين فوزي: "لسنا في حاجة لمقدمة كلامية لشرح السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. فالعمل يقدم نفسه بأعجب ما بدأ به مؤلف موسيقي. وينتهي بأصوات الكورس الكبير ومعه رباعي من المنشدين يرفعون أكفهم بالضراعة إلى الخلاق العظيم أن يشمل البشرية برحمته، وينزل على قلوب الناس الطمأنينة والسلام. وهذه السيمفونية الصاخبة، الهائلة في نهايتها، تبدأ هادئة، وبلحن لا يكاد يكون شيئًا مذكورًا. لحن يبدأ متسائلًا خفيا، وكأن بيتهوفن يبحث عن شيء لا يعرفه تمامًا، أو هو باحث عن نفسه".

عُزفت السيمفونية التاسعة لأول مرة، يوم 7 مايو 1824 بفيينا، في أول ظهور لبيتهوفن على مسرح منذ 12 عامًا، وسط حضور جماهيري كثيف.

ورغم أن بيتهوفن أصر على قيادة العرض، فإن مايكل أوملاف، هو من قاده رسميا، وأعطى أوامره للعازفين بتجاهل بيتهوفن تمامًا، لأنه شهد من قبل كيف أفسد بيتهوفن الأصم تدريبات أوبرا فيديلو، فلم يرِد للأمر أن يتكرر.

ووصف عازف الكمان جوزيفبوم، بيتهوفن يومها قائلا: "كان واقفا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمنبر، وأومأ بشراسة، في بعض الأحيان كان يقف، وفي أحيان أخرى ينكمش في الأرض، تحرك كما لو أنه يريد عزف كل الآلات بنفسه والغناء بدلا من الجوقة".

والحكايات كثيرة عن العرض الأول للسيمفونية: فبينما وقف الجمهور في أماكنهم وألهبوا أيديهم بالتصفيق غير مصدقين أن هذه المعجزة حدثت للتو في حضورهم، كان بيتهوفن قد تخلّف عن الأوركسترا بعض الوقت، ولا يزال يقود، فلمست كتفه إحدى العازفات ووجّهته للجمهور.

وقال شاهد عيان: "قابل الجمهور البطل الموسيقي بقدر كبير من الاحترام والتعاطف، واندلعت الصالة في تصفيق شديد، مع الوقوف خمس مرات، كانوا يلقون بقبعاتهم ومناديلهم في الهواء ويرفعون أيديهم، في محاولة للفت انتباه بيتهوفن الأصم ليرى أنهم يصفّقون له".

بيتهوفن الذي صارع الحياة وصارعته، وبدا أغلب وقته ساخطا عليها، أهدى العالم في آخر أعماله، نشيدا يحمل اسم "إلى الفرح"، كأنها رسالة ختامية، تقول إنه مهما تعقّدت الحياة، فإنه لا يزال بإمكاننا أن نعيشها، ونجد فيها فسحة الأمل، التي هي باب كل فرح.

الزواج من أجل خاطر محمد حسنين هيكل!

كِدتُ مرةً أتزوّج بسبب محمد حسنين هيكل!

في الجامعة، تعرّفت تلك الفتاة السمراء اللطيفة، من خارج كلّيتي، علاقتنا كانت عابرة في البداية، وكذلك لقاءاتنا، حتى اكتشفتُ أن والدها الراحل يملك مكتبة هائلة تضجّ بالكتب، فبدأت أوطّد علاقتي بها أكثر، وأقترض منها بعض كتبها.

كانت الكتب مدهشة، ومتنوّعة، وقادرة على إسالة لعاب أي دودة كتب قديمة مثلي!

ومع كل كتاب آخذه منها، أشعر بالضعف تجاهها أكثر، وبأنه يمكن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أجل خاطر الكتب، أن يكون لعلاقتنا مستقبل ما، حتى انهرتُ تمامًا عندما بدأتُ تحضر لي كتب الأستاذ: ملفات السويس، وأكتوبر 73، والمفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، خصوصًا عندما طلبتْ استعادتها!

وفكرت جديًا أن أضع حدًا لوجع القلب هذا، وأتزوّجها، وأتزوج الكتب معها!

أما علاقتي الحقيقية بهيكل، فبدأت قبلها بسنوات، عندما كان والدي يحرص على قراءة مقالات الأستاذ في الأهرام، وتمريرها لي، لم أكن وقتها أفهم كلّ ما يقول، لكن أثارت انتباهي بشدة لغته العربية القوية السليمة، وتشبيهاته التي تناسب الأحداث تمامًا، وتعلّمت لأوّل مرّة أنه ليس الأديب وحده، ومَن يكتب القصة والرواية والشعر، من ينبغي لهم أن يتقنوا عربيّتهم، وإنما كل من يسعى لترك أثر في نفس قارئه، أيا كان الفن الذي يعالجه.

كنتُ أنظر لهيكل بإكبار، ودهشة، وانبهار، مِن كمّ الوثائق السرية والعلاقات والأحداث التي يفك مغاليقها، وأحجام الكتب التي يؤلفها، حتى إن لم يتحقق الكثير من نبوءاته، وأتعلّم على يديه "سبك" الحكي، والتسلسل المنطقي للأحداث، و"النَفَس الحلو" في الأداء، والاهتمام بكل تفصيلة وشاردة وواردة، وتوثيقها.

صحيح أنني عندما كبرت، أصبحتُ أكثر قدرة على نقد ما يكتب، والاختلاف معه -ومع غيره- أحيانًا، وهي سنّة الحياة، لكنه ظلّ أبدًا في ناظري، ذلك الكاتب الكبير الذي عاش ورأى وحكى وكشف، وصنع صورة مغايرة ومحترمة للصحفي، وشارك في صنع التاريخ، حتى إن لم يبح سوى بأقل القليل، وأخفى الكثير، مما كان يمكن أن يغيّر أوضاعا كثيرة في مصر.

أحبّ هيكل الكثيرون، وكرهه الكثيرون، لكن جميعهم لم يستطيعوا تجاهل الرجل، ولا عدم الاعتراف بأنه حالة فريدة في تاريخ الصحافة المصرية، وربما العالمية.

والآن، بعد نزول كلمة النهاية، وصعود روحه إلى بارئها، أتمنّى أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعـاد تقـييم الرجـل بصـدق، وفـق منـجزه الصـحفي والأدبـي والتاريخي والإنساني، بعيدًا عن حفلات أكل لحمه ميتا، والصعود على جثته أمام عدسات الفضائيات، والاستئساد الذي غاب عن الكثيرين في حياته، لأن الأكثر أهمية من محمد حسنين هيكل، ومن أي أحد: الدرس الذي نخرج به من رحلته، ونتعلّمه، كي نعلّمه للآتين من بعدنا.

البيت

بيت أبويا اللي اتربّيت فيه، يفضل أأمن وأوسع مكان في العالم، رغـم إنـه مـاكانش كـبير ولا حاجـة، ولا كـان مفـروش مـن إيكيـا وهـابيتات، سـافرت بـيروت، ورحـت الكـويت، ودخلـت فنـادق ٥ نجوم، وقعدت في شاليهات على البحر، سكنت في مدينة نصر وشـربين وحلوان والعبور، وعمري ما حسيت بالبراح والحضن وراحة البال اللي كنت بلاقيها فيه.

تتجوّز، وتخلّف، وتشتغل، وتقبض فلوس كتيرة وقليلة، وتجيب كل اللي نفسك فيه، وتفضل أيّامك في البيت ده، هي الأجمل والأطـيب والأبهج، رغم ضيق الحال زمان، ورغم خناقاتك مع أخواتك على ريموت التليفزيون، واللي لِبس البنطلون المكوي قبل التاني، واللي خلّص مية السخان وهو عارف إنك هتستحمّى، واللي فتن على التاني اللي ما خلّصش طبقه، وجبال الأكل اللي هتجري وراك يوم القيامة، وفرحة إن حد هيتجوّز، مش عشان كبر، وهيستقل بنفسه، لا سمح الله، أبسلوتلي، لكن عشان تبرشط على أوضته، وتاخد حاجته:

في البيت ده، اتعلّمت المشي والكلام والقراية والكتابة، ومثّلت إن عنـدك مغـص، عشـان مـا تـروحش المدرسـة الصبح، واتـدلعت علـى أمـك وقلـت مـش عـايز كشري، فبعتـت جابت لك لانشـون وزيتون وشيبسي وشوكولاتة جيرسي، واتحايلت عليك عشان تـاكل، ولبسـت بدلة ظابط، وأول واحـد قبضت عليـه كـان أبوك، وحلمـت تطلـع دكتـور وطيـار، ويبقـى عنـدك فلوس كتير فشخ، عشان تشتري قَطر وملاهي وكيمو كونو الأزرق اللي بيكسب ده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في البيت ده، قلبك دقّ لبنت الجيران، وبصّيت عليها من ورا الشيش المتوارب، وسمعت أم كلثوم لأول مرة، وإنت بتشرب شاي حبر بالليل، وحاولت تدخّن أول سيجارة، وغرّقت مخدتك بدموع الحب الأول، وقعدت على الإنترنت لأول مرة تسمع صوت الدايل أب وتتنقط، وجبت نتيجة الثانوية العامة، وعيّطت لما خدت مجموع الكلية اللي اتمنّيتها، وافتكرت إن كل أحلامك خلاص هتتحقق، دخلت الجامعة ونجحت وفشلت وعرفت وفارقت وطلعت الأول وطلعت الأخير، وعرفت صحاب ياما، وخسرت صحاب ياما، ورفعت سماعة التليفون في ليلة شتوية حزينة، وقلت للبنت اللي بتحبها ليلة فرحها وصوت الرعد بيضرب في السما: «مبروك، نصيبنا كده!»

مهما تبعد، وتسافر، وتشوف، وتعرف، وتكتشف، وتنبهر، مهما تكبر، وشعرك يبيض، والدنيا تاخدك، والسنين تعلّم عليك، يفضل جواك حلم مستخبّي، ما بتصارحش بيه حتى نفسك، ولا أقرب الناس إليك، إن يكون آخر أيّامك بين جدرانه، على سريرك ومخدتك القديمة، رغم رحيل اللي سكنوه وعمّروه وملوه حنان وإنسانية وحياة، وتدعي ربنا بيتك يمثّل لولادك، ولو نصّ اللي مثّله بيت أبوك ليك!

عبلة الرويني تعيد أمل دنقل للحياة

وصلتُ متأخرًا عن موعدي معها، المواصلات فعلتها معي كالعادة، لكني كنت أحمل سلاحًا سرّيًا.

صعدتُ سلالم الدور الأول على عجل، ودققت الجرس، وبسرعة أخرجتُ سلاحي السري، ورفعته وتقدّمت به، في انتظار لحظة المواجهة.

إنها عبلة الرويني فعلا، تقف خلف الباب، وعلى وجهها ابتسامة ساحرة، راحت تتسع وهي تشاهدني أحمل الورد إليها.

وبادرتني: الورد أنقذك!

فحمدتُ اللّٰه، وأثنيتُ عليه بما هو أهلٌ له، ثم أخذتُ نفسًا عميقًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخطوتُ بقدمي إلى المحراب.

كنتِ قريبة من أمل في لحظات ولادة قصائده الكبرى، فكيف كنت ترينه يعمل؟ وما مصدر إلهامه الأكبر؟

لكل قصيدة من قصائد أمل، رؤية وبناء فكري، غير بنائها الفني، فهي تؤكد معنى ما، وتضيف جملة جمالية في مسيرته الفنية، وأغلب قراءاته كانت في السياسة والتاريخ والتراث، والكتب المقدسة مصدره الأساسي، وفي ديوان "العهد الآتي" مثلا، أعاد إنتاج التوراة، وحاكاها لغة وتقسيمًا ومفرداتٍ، فيما تستلهم قصائده عادة القرآن والتوراة معًا، وتضفّر بينهما في مزيج فريد، صنع شعبيته، ولدى أمل ديوان كامل "أقوال جديدة عن حرب البسوس"، يستدعي فيه القصة التراثية لحرب البسوس، بشخوصها وتداعياتها، في إطار معالجة عصرية.

تكنيك خلط التراث بالسياسة المعاصرة، وما يحمله بالضرورة من إسقاطات، إضافة لاستخدام الرموز الدينية في قصائده، لم يكن يتسبب في مشاكل لأمل؟

لم يحدث هذا، فلم يُجابه أمل باعتراضات دينية على قصائده، من أفراد أو مؤسسات، ولم تسجّل ضدّه تحفّظات من أي نوع، ولم تتخذ في حقه أي إجراءات تعسفية، فلم يكن له نشاط سياسي يؤاخذ عليه. كان مخلصًا للشعر وحده، يبثّه كل شيء.

هل لا يزال أمل دنقل يعيش للآن؟ وما الذي تضفيه قصائده على الواقع المعيش؟

قصائده تعيش حتى الآن بالفعل، ودون أمل، لم يكن لأحد أن يتصوّر مدى التدني الفكري والثقافي والإبداعي، الحاصل الآن، والذي لا نحتاج أمل للقول إنه فاق الحدود، فهناك تجاوزات شديدة في حق الإبداع وحرية التعبير، وتراجع في الحالة الثقافية عمومًا، والمشكلة ليست في الشكل إنما في المضمون، لا مشكلة أن تكتب قصيدة نثر أو تفعيلة، المهم أن تكون جيّدة، المستوى هو الفيصل، والتراجع الحادث الآن في كتابة الشعر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقراءته على حد سواء، ناتج عن لخبطة وارتباك المجتمع، والأدب أحد تجليات هذه اللخبطة.

هل فكر أمل في كتابة أي شكل إبداعي آخر غير الشعر؟

أمل لم يترك سوى الشعر، وكان ضد كتابة النثر، هو شخص مُخلص تماماً وأبدًا للقصيدة، لا يعمل ولا يقترب من أي وظيفة أخرى، ولا مكان في قلبه لأي شيء الدنيا غير كتابة الشعر، ربما في البدايات، وهو في العشرينيات من عمره مثلاً، حاول كتابة مسرحية غير شعرية، كتب فكرتها فقط، وكانت عن قناة السويس، لكنها لم تكتمل، المتوافر منها صفحة واحدة أو صفحتان، ولا يمكن التعامل معها بجدية، فهي لم تكن سوى فكرة.

هل يمكن القول إن أمل غزير الإنتاج؟

كلا، أمل تُوفي في الأربعين من عمره، وكل ما أنجزه 6 دواوين فقط، مقارنة بسعدي يوسف مثلا، الذي يكتب كل يوم قصيدة، لا يمكن أن يقال إن أمل غزير الإنتاج، وعندما سألت سعدي: لماذا تفعل هذا؟ أخبرني أنه يكتب كل يوم، لعلّه يظفر بقصيدة جيّدة كل فترة، فهو منهج، أما أمل فكان قليل الكتابة، وفترات صمته طويلة، لكنها ليست مخيفة.

رغم إقلاله، كتب أمل في فترة مرضه الأخيرة، ديوانا كاملا، هل لذلك دلالة ما؟

أمل عنيد، وكان في لحظاته الأخيرة، يتحدّى الموت بالكتابة، فهي شكل من أشكال المقاومة، وتعامله مع الشعر لا يستهلكه، إنما يشحنه.

هل كان الوحي ينقطع عن أمل؟

لم يكن أمل يخاف من فترات صمته، وقد أمضى مرة 4 سنوات دون كتابة، لكن لحظات الصمت الطويلة تتبعها نقلة جمالية عادة، وفي فترة الصمت كان يقرأ كثيرًا، فهو صمت عن الكتابة وليس

5 دقيقة متبقية من «لدي الكثير جداً لأقوله لك» 96%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبلها وخلالها، وما يحتشد به داخله، فالقصيدة موجودة، لكن لحظة كتابتها هي التي ربما تتأخر قليلا.

هل لأمل موهبة أخرى غير الشعر؟

نعم، ذاكرته الحديدية، في سهرة من السهرات، ألقى قصيدة كاملة لعز الدين إسماعيل الناقد، فاندهشنا لأنه يحفظ شيئا غير مألوف، وغير مطروق، وهذه الذاكرة الجبارة كانت معينه في كتابة الشعر، فأمل شاعر بلا مسوّدات، كانت المسوّدة ذاكرته الحديدية، يفكر في القصيدة، ينشغل بها وهو يأكل، ويشرب، ويقابل أصحابه، وآخر مرحلة وأسهلها، وضعها على الورق.

من يخلف أمل دنقل؟

لو قلنا إن أحداً أعاد إنتاج أمل، فلا داعي لأن يكون موجود أصلا، ما دام لدينا الأصل، ولو قلنا إن أحدًا وصل إلى مكانته الشعرية، وإضافته الجمالية، بشكل يتجاوز أمل، فمن وجهة نظري أنا، لم يحدث هذا، وهو ليس انحيازًا، فهو ما يؤمن به عدد من النقاد، مع ذلك لو قلنا إن أمل آخر الشعراء، سوف نظلم المستقبل والأجيال التي تلته، بالتأكيد هناك شعر وشعراء كثيرون من بعده، من الممكن أن نختلف في تقييمهم، لكن أمل ليس آخر الشعراء. وهناك شعراء عملوا في قصائدهم على ما تم إنجازه، واجتهدوا في المتحقّق، حتى لو لم يقدّموا إضافة، ولدينا أيضا شعراء قصيدة النثر، وهو منحى آخر، وبنية أخرى، ومسار مختلف عن مسار قصيدة التفعيلة، وشعراء النثر أكثر من تأثر بأمل.

هل كان أمل يعرف أنه شاعر صاحب منجز كبير وبصمة؟

أمل كان يدرك تمامًا حجم موهبته، وهذا هو سلاحه الأقوى، وسر اعتزازه الشديد بنفسه، فلم يكن أحد فوق رأسه، وحتى خصومه كانوا يدركون حجمه وقوته تمامًا.

مَن خصوم أمل؟

كل الأدعياء، وليس المختلفين، فقد يكون هناك من يختلف معه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سياسيًا مثلا، لكنه صديقه، فالاختلاف ثقافة، أما الادّعاء فرياء.

عبلة دون أمل.. هل كان المسار ليختلف؟

لا أستطيع القول إن أحدًا يرسم مسار الآخر، التقيتُ أمل وأنا صحفية، هذه خطوة كنت قد قطعتها في مساري بالفعل، وقبل ارتباطنا كنت في أكاديمية الفنون، أدرس الدراما، تخصص مسرح، ثم درست العمل النقدي المسرحي، وبعد وفاته استمر المساران معي، لكن بالتأكيد في حياتنا جميعا شخصيات أحدثت تأثيرًا كبيرًا، وأمل أحدث زلزالا في حياتي.

لماذا أمل؟

لم أرتبط به لأنه شاعر كبير، لكن لأنه إلى جوار موهبته الشعرية الباذخة، كان يملك موهبة إنسانية أكثر بذخًا، كانت تدفع أصدقاءه ومن يعرفونه، للفخر بصداقته طول الوقت، حتى بعد رحيله، لأنّه من الصعب ألا تتوقف أمام إنسانيته وتتأثر بها، فهو شخص شديد الصدق وشديد الحرية، لا يتعالى ولا يكذب ولا يتواطأ، وقيمه الحقيقية تجدها في شعره، فهو يكتب نفسه، ولا يمكن فصله عن قصائده، ولا يريد أي شيء غير الشعر، ولا يعمل أي شيء سواه، لماذا أمل؟ لعلي وجدت من يفوقونه ماديًا بكثير، وربما يكونون حلم أي فتاة، لكني لم أجد أحداً بمثل قِيمه، واعتزازه بنفسه، وإنسانيته، الإنسانية كانت كلمة السر بين قلبي وقلبه.

لم أكن أريد أن أمضي، أو ينقطع بيننا الحديث، لكني كنت أدرك أن وقتها ثمين، كما أن استعادة الذكريات أنهكتها، وأدخلتها، كما أتصوّر، في حالة بين اليقظة والحلم، وفتحت عليها أبواب عالم ثري، أحسبها تود أن تمضي فيها وحدها الآن.

نهضتُ على مضض، فاستوقفتني، وأسرعتُ لغرفة داخلية، ثم عادتْ بنسخة من كتابها الشهير "الجنوبي"، الذي سردتْ فيه قصة حبّها لأمل، ولحظاتهما الأخيرة معًا، تحت جناح المرض، الذي اقتنص الروح المتمردة في 21 مايو عام 1983م، وكتبتْ لي

3 دقيقة متبقية من «لدي الكثير جداً لأقوله لك» 98%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إهداء، أطالعه بفخر كلّما اشتقت لرؤية اسمها واسم حبيبها في مكان واحد، وتحته بقليل اسمي، لأجلس في حضرتهما، ولو بالخيال، لحيظات، تروي روحي بمحبّة و"أمل".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الكاتب

حسام مصطفى إبراهيم

-

رئيس تحرير موقع اكتب صح www.ektebsa7.com.

-

تخرج في كلية التربية، جامعة المنصورة، قسم اللغة العربية، عام2001.

-

عضو اتّحاد الكتاب المصري.

-

مدرّب بأكاديمية أونا الإعلامية.

-

مدرّب بأكاديمية التليفزيون الألماني في مصر دويتشه فيله.

-

حاضر في: جامعة زويل، الجامعة البريطانية، جامعة القاهرة، ومواقع: إعلام دوت أورج، دوت مصر، مبتدا، سوبر ماما، والعديد من المبادرات الشبابية، وأقام ورش عمل في: القاهرة، المحلة الكبرى، المنصورة، الإسكندرية.

1 دقيقة متبقية من «لدي الكثير جداً لأقوله لك» 99%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمل رئيسًا لوحدة ديسك الحياة بموقع دوت مصر

صدر له:

1 - بتوقيت القاهرة، رواية، دار دوّن.
2 - جر شكل، ساخر، دار المصري.
3 - اللحاق بآخر عربة في القطار، قصص، دار اكتب.
4 - يوميات مدرس في الأرياف، ساخر، دار اكتب.
5 - من غلبي، ساخر، دار كيان.
6 - قراءة في كف الحب، أدب رسائل، دار أجيال.
7 - لولا وجود الحب، أدب رسائل، دار أجيال.
8 - نعيق الغراب، مختارات قصصية ونقد أدبي، دار اكتب.

للتواصل

فيس بوك: www.facebook.com/HosamMostafaEbrahem

تويتر: hosammostafa_it

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner